من روائع حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

كتاب التوبة

التوبة إلى الله

ومكفرات الذنوب

لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي

دراسة وتحقيق وتعليق

عبد اللطيف عاشور

مكتبة القرآن

من روائع حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

كتاب التوبة

التوبة إلى الله

ومكفرات الذنوب

لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي

دراسة وتحقيق وتعليق

محمد عبد اللطيف عاشور

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوي - بولاق أبو العلا -
القاهرة - ت ٧٦١١٩٦٢٠ - ٧٦٨٥٩١٠ فاكس ٢٤٨٠٤٨٢

وكيلنا الوحيد بالمملكة العربية السعودية :

مكتبة الساعي

الرياض ت : ٤٢٥٣٧٦٨ - فاكس : ٤٣٥٥٩٤٥
ص ب : ٥٠٦٤٩ الرياض : ١١٥٣٣
فرع جدة - تليفون : ٦٥٣٢٠٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المحقق

كثيراً ما أخلو ــ بين الحين والحين ــ إلى مؤلفات « حجة الإسلام أبى حامد الغزالى » فأجد فيها راحة لقلبى ، و... لنفسى ، وبخاصة ما يتعلق منها بالمنجيات .

فلقد قرأت فيما قرأت عن التوبة والتائبين

« أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألمَ به .

هل لىَ من توبة ؟!

فأعرض عنه ابن مسعود ، ثم التفت إليه ؛ فرأى عينيه تذرفان !! .

فقال له :

إن للجنةِ ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملَكاً مُوَكّلاً به لا يُغْلق ؛ فاعمل ولا تيأس » .

ورأيت « إمامنا الغزالى » يضع التوبة على رأس المنجيات فى كتابه « إحياء علوم الدين » ويتناول مكفرات الذ... تناولاً رائداً وَيفرد لهذا البحث كتاباً مستقلاً نظراً لأ... وأثره فى عاجل حياتنا وآجلها .

ولست أخفى عليك ــ أيها القارىء العزيز ــ أن هذا الكتاب قد شدنى ، وملك علىَّ جوانب نفسى ، حيث تصدى « أبو حامد » لشرح حقيقة التوبة ، وبيان شروطها ، وسببها ، وعلامتها وثمرتها ، والآفات المانعة منها ، والأدوية الميسرة لها مما قد لا نجده مجتمعاً فى كتاب !

وقلت فى نفسى : من منا ليس فى حاجة عاجلة إلى مراجعة نفسه ، والإقبال على ربه ؛ ليتوب إليه توبة نصوحاً ؟ ولكن كيف السبيل ؟!! وأين الطريق إلى ذلك الباب المفتوح .. « باب التوبة » ؟!!

وهنا برزت فكرة إخراج هذا الكتاب .. لماذا لا نمهده للفكر ؟ ولِمَ لا نيسره للذكر ؟؛ لينير لكل مسلم طريق التوبة حتى يكون مع الذين أنعم الله عليهم ورضى عنهم ورضوا عنه .

وها هوذا بين يديك ؛ فإن وفقنا فمن الله وحسبنا الله ونعم الوكيل ،،،،

عبد اللطيف عاشور

أول شعبان ١٤٠٦هـ

١٠ من إبريل ١٩٨٦م

دراسة التحقيق

- هذا الكتاب !
- المؤلف .
- عصره .
- مؤلفاته .
- حجة الإسلام الغزالى مؤلفاً ومجدداً .
- منهج التحقيق .

هذا الكتاب

نوع فريد متميز بين غيره من الكتب التى تناولت موضوع التوبة والتائبين ؛ فلقد بين مؤلفه حدها ، وحقيقتها ، وسببها الذى به تجتلب ، وثمرتها التى منها تستفاد ، وعلامتها التى بها تُتعرف ، وفضيلتها التى لأجلها فيها يرغب ، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

وقد نجد من صنف فى هذه المعانى كتباً ولكن المؤلف ـــ وهو أعلم بما صنف ـــ يقول :

يمتاز هذا الكتاب عن تلك الكتب بخمسة أمور :

الأول ـــ حل ما عقدوه ، وكشف ما أجملوه .

الثانى : ترتيب ما بدَّدُوه ، ونظم ما فرقوه .

الثالث ـــ إيجاز ما طولوه ، وضبط ما قرروه .

الرابع ـــ حذف ما كرروه ، وإثبات ما حرروه .

الخامس ـــ تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يُتَعَرَّض لها فى الكتب أصلاً .

ومن أجل هذا كان حرصنا على حسن إعداد هذا الكتاب للنشر وتقديمه لقرائنا وها هو ذا بين يديك !

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينير لنا طريق التوبة ، وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدا .

المؤلف أبو حامد الغزالى

- ولد أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالى فى قرية « غزالة » من أعمال « طوس » سنة ٤٥٠ هـ..

- تنقل فى طلب العلم ما بين « طوس » إلى « جرجان » و« نيسابور » حيث لازم إمام الحرمين الجوينى ، وصار من أخص تلاميذه .

- لقى الوزير « نظام الملك » بعد موت إمام الحرمين فعرف له مكانته ، وأنزله خير منزل ، وفوض إليه التدريس بالمدرسة النظامية « ببغداد » بعد أن جرى بينه وبين العلماء مجادلات ومناظرات فى عدة مجالس استوجبت إعجاب نظام الملك . وكان يحضر درسه نحو ثلاثمائة من كبار العلماء حيث كانت تشد إليه الرجال .

- ثم ترك الدنيا وزينتها وخرج من بغداد سائحاً متصوفاً (عام ٤٨٨) ، وبدأ بالحج ثم دخل الشام وأقام بها زاهداً ، وفى عُزلته ببلاد الشام ألف « كتاب الإحياء » ثم انتقل إلى بيت المقدس ، ثم قصد مصر ، وأقام بالإسكندرية مدة ، ويقول « ابن خلكان » إنه قصد الركوب منها فى البحر إلى بلاد المغرب للاجتماع بالأمير « يوسف بن تاشفين » صاحب « مراكش » فبلغه نعيه ، وعندئذ صرف عزمه عن تلك الناحية ، وعاد إلى بغداد ثم خراسان .

- درس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة أخرى ، ثم رجع إلى طوس ، واتخذ إلى جانب درسه مدرسة للفقهاء ، وخانقاه للصوفية .

- قسم وقته بين العبادة والتدريس ومجالسة المتصوفة إلى أن وافاه الأجل (سنة ٥٠٥) فى مدينة الطابران قصبة طوس بعد أن ملأ الدنيا علماً وفضلاً وخيراً .

عصر الإمام الغزالى

(١) هو عصر السلاجقة الذين قاموا بمناصرة أهل السنة على الشيعة.

(٢) وهو العصر الذى نشط فيه الباطنية.

(٣) كما ازدحم العصر بأصحاب المذاهب الفلسفية المختلفة فلم يكن عجيباً ولا غريباً أن يتصدى «حجة الإسلام» الغزالى لهؤلاء وأولئك.. بالرد.. والتفنيد.. والمناهضة ويعلنها حرباً.. ويشن هجماته وغاراته على جبهات مختلفة كانت وسيلته فيها المناظرة والمجادلة والتأليف، والتصنيف.

مؤلفاته :

لو تصدينا لعد مؤلفاته وحصرها لوجدنا أنها تزيد على السبعين مؤلفاً؛ منها ما رأى النور، ومنها ما لا يزال مخطوطاً.. ومن مؤلفاته :

١ ــ تهافت الفلاسفة.
٢ ــ مقاصد الفلاسفة.
٣ ــ عقيدة أهل السنة.
٤ ــ فضائح الباطنية.
٥ ــ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.
٦ ــ تنزيه القرآن عن المطاعن.
٧ ــ التبر المسبوك فى نصيحة الملوك.
٨ ــ مكاشفة القلوب.
٩ ــ المنقذ من الضلال.

١٠ــ ميزان العمل .
١١ــ إلجام العوام عن علم الكلام .
١٢ــ إحياء علوم الدين .
١٣ــ الوسيط « فى علم الفقه » .
١٤ــ البسيط « فى علم الفقه » .
١٥ــ الوجيز « فى علم الفقه » .
١٦ــ الخلاصة « فى علم الفقه » .

إلى غير ذلك من كتبه التى تصدت لحصرها قوائم الكتب والمخطوطات .

حجة الإسلام الغزالى مؤلفاً ومجدداً

نستطيع أن نقسم عمل حجة الإسلام وإنتاجه وتجديده فى ناحيتين :

الأولى : نقده الفلسفة ومناقشته لها ، وتجديده لعلم الكلام الذى فقد جدَّته وحياته .

الثانية : « الحِسْبة » على المجتمع الإسلامى المعاصر ، والدعوة إلى الأخلاق الإسلامية ، والروح ، والتحلى بالحقائق .

ويمثل الناحية الثانية كتابه العظيم « إحياء علوم الدين » وقد صنف الغزالى هذا الكتاب ، وقد خرج من بغداد فى طلب السعادة واليقين واشتغل بالعبادة والمجاهدة والانقطاع عن الناس . الغزالى إذن مصلح اجتماعى يخصص جزءاً من كتابه بذم الغرور يذكر فيه أصناف المغترين ، وفرق كل صنف ، ذكر منهم المغترين من أهل العلم ، وفرقهم ، والمغترين من المتصوفة ، والمغترين من أرباب الأموال وفرقهم ، وقد ذكر منافذ الشيطان ومداخل النفس فى هذه الطبقات وأصنافها وذكر من أفكارهم ومزالقهم وعقدهم النفسية ما لا يطلع عليها إلا عالم كبير من علماء النفس[1] .

وقد انتقد العلماء والمشتغلين بالعلم فى غلوائهم فى الإكثار من الجزئيات الفقهية ، والخلافيات ، والكلام ، والجدل ، والتعمق فى العلوم الآلية : كالنحو واللغة ، والشعر والغريب ، والانهماك به .

---

(١) أبو الأعلى المودودى ــ حجة الإسلام الغزالى .

نقده للصوفية :

وانتقد الصوفيه : بالاكتفاء بحفظ أقوال المشائخ وأخبارهم ولاحظ أن هذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها .

فأما علم الطب والحساب والصناعات ، وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع ، فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث إنها علوم ؛ فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع .

ولقد ذكر من التباسات الصوفية ومبالغتهم شيئاً كثيراً يدل على إنصافه وتدقيقه .

وقد ذكر عن المغترين من أرباب الأموال طرائف وحقائق تدل على النظر العميق والفهم الدينى الصحيح .

ويتجلى لنا ذلك من خلال حديثه عن غرور العامة وطوائف من الأغنياء والفقراء ؛ مما يحول دون « التوبة » ويبعد المسلم عن الصراط المستقيم ويُتيح للشيطان أن يستحوذ عليهم وينسيهم ذكر الله ؛ فيصبحوا من حزبه !! وها هو ذا يفتح باب التوبة لكل هؤلاء وأولئك ليكونوا جميعاً على صراط مستقيم ، طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين . وإذا كان الإمام الغزالى قد حعل الغرور أس المهلكات فقد جعل التوبة على رأس المنجيات .

ويظهر الغزالى مصوراً حاذقاً يتناول بريشته البارعة مجتمع عصره فيصور مخايله وقسمات وجهه ويجسم وقائعه وتجاعيده ويظهر فى ذلك كله ذكاؤه وسعة اطلاعه ، ودقة ملاحظته وبراعة تصويره وسلامة تفكيره .

منهج التحقيق

- قدمت للكتاب ، وعلقت عليه بما يتيح للقارىء المسلم معرفة أنواع الذنوب ومكفراتها ويهيىء له كيف يتوب منها !
- قسمت أركان الكتاب الأربعة إلى فصول ، وبذلت جهدى فى اختيار العناوين الملائمة لها ليتسنى الإلمام بها ، والانتفاع بكل ما جاء فيها .
- وضعت على مدخل كل ركن « مرآة » يرى فيها القارىء ما تضمنه ذلك الركن من أفكار ونقاط .
- قدمت للقارىء بياناً تفصيلياً بالذنوب التى منها نتوب مع أقسام الناس فى الآخرة طبقاً لما تناوله الإمام الغزالى مما يساعد القارىء على الإلمام بالموضوع ، ويثير فيه مزيداً من الشوق إلى استيعابه على الوجه الأكمل .
- أخرجت الكتاب فى صورته اللائقة وجعلته فى متناول الجميع ، ليسهل تداوله ، والاستفادة مما تناوله .
- وها هو ذا ينضم إلى « إخوة له » من روائع حجة الإسلام الغزالى أصدرتها مكتبة القرآن .
- الزواج الإسلامى السعيد .
- المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى .
- أصناف المغرورين .
- بداية الهداية .
- الأذكار والدعوات.

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى بتحميده يستفتح كل كتاب ، وبذكره يصدر كل خطاب ، وبحمده يتنعم أهل النعيم فى دار الثواب ، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب ، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهرة من قبله العذاب .

ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب . ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب .

ونصلى على نبيه محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه ، صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب ، وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب .

مَبدَأُ طريقِ السَّالكين

أما بعد . فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام المريدين ؛ ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين . وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو أن أذنب الآدمى واجترم(٢) فهى شِنْشِنة يعرفها من أخزم(٣) ؛ ومن أشبه أباه فما ظلم ولكن الأب إذا جبر بعدما كسر وعمر بعد

(٢) اجترم : ارتكب ذنباً وجُرْماً .

(٣) الشِّنْشِنة : الطبيعة والعادة . وهى بكسر الشين الأولى والثالثة . وكان أخزم عاقًّا لأبيه فمات ، فوثَبَ أولاده على جدهم فأدموه فقال : إن بَنِيَّ ضرجونى بالدم . « شِنْشِنة أعرفها من أخزِم » فأصبح الشطر الثانى من البيت مثلاً يضرب فى قرب الشبه . (تهذيب مجمع الأمثال) .

تان هدم ، فليكن النزوع إليه فى كلا طرفى النفى والإثبات ، والوجود والعدم ربله قَرَعَ آدمُ سنَّ الندم ، وتَندَّم على ما سبق منه وتقدم . فمن اتخذه قدوة فى الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم . بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين . فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والمتجرد للشر شيطان ، والمتلافى للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان فقد ازدوج فى طينة الإنسان شائبتان ، واصطحب فيه سجيتان . وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك ، أو إلى آدم ، أو إلى الشيطان . فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان . والمصرُّ على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان .

فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان ، فإن الشر معجون مع الخير فى طينة آدم عجناً محكماً ، لا يخلصه إلا إحدى النارين ، نار الندم أو نار جهنم . فالإحراق بالنار ضرورى فى تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان ، وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والمبادرة إلى أخف الشرين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار ، إما إلى الجنة وإما إلى النار !!

تمهيد

إذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع ، وجب تقديمها فى صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها ، وشروطها ، وسببها ، وعلامتها ، وثمرتها ؛ والآفات المانعة منها ، والأدوية الميسرة لها . ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان :

الركن الأول : فى نفس التوبة ، وبيان حدها ، وحقيقتها ، وأنها واجبة على الفور ، وعلى جميع الأشخاص ، وفى جميع الأحوال ، وأنها إذا صحت كانت مقبولة .

الركن الثانى : فيما عنه التوبة ، وهو الذنوب ، وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر ، وما يتعلق بالعباد ، وما يتعلق بحق الله تعالى ، وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات[٤] والسيئات ، وبيان الأسباب التى بها تعظم الصغائر .

الركن الثالث : فى بيان شروط التوبة ودوامها ، وكيفية تدارك ما مضى من المظالم ، وكيفية تكفير الذنوب ، وبيان أقسام التائبين فى دوام التوبة .

الركن الرابع : فى السبب الباعث على التوبة ، وكيفية العلاج فى حل عقدة الإصرار من المذنبين ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل .

---

(٤) لأهل الجنة درجات على الحسنات . كما أن لأهل النار دركات على السيئات وقد جاء القرآن بهذا ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ . ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ [الأحقاف : ١٩] .

الركن الأول

فى نفس التوبة

- بيان حقيقةِ التَّوبةِ وحَدِّها .
- بيان وُجُوبِ التَّوبةِ وفضلها .
- بيان أن التوبة واجبة على الفور .
- بيان أن التوبةَ واجبةٌ على جميع الأشخاص وفى جميع الأحوال
- بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهى مقبولة لا محالة !!

الفصل الأول

بيان حقيقة التوبة وحدها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم . وحال . وفعل . فالعلم الأوَّل ، والحال الثانى ، والفعل الثالث . والأوَّل موجب للثانى ، والثانى موجب للثالث إيجاباً اقتضاه اطراد سنة الله فى الملك والملكوت .

أما العلم : فهو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب فإذا عرف ذلك معرفة محققة ، بيقين غالب على قلبه ، ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب . فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم . فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً . فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى ، انبعث بالحال ، وبالماضى ، وبالاستقبال . أما تعلقه بالحال ، فبالترك للذنب الذى كان ملابساً وأما بالاستقبال ، فبالعزم على ترك الذنب المفوِّت للمحبوب إلى آخر العمر . وأما بالماضى ، فبتلافى ما فات بالخير والقضاء إن كان قابلاً للخير فالعلم هو الأول . وهو مطلع هذه الخيرات . وأعنى بهذا العلم الإيمان واليقين . فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة ، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق ، وانتفاء الشك عنه ، واستيلاؤه على القلب ، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم . فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوباً عن محبوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان فى ظلمة ، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب ، أو انحسار حجاب ، فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك ، فتشتعل نيران الحب فى قلبه ، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك .

فالعلم والندم، والقصد المتعلق بالترك فى الحال والاستقبال. والتلافى للماضى، ثلاثة معان مرتبة فى الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى للندم وحده، ويجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالثمرة والتابع المتأخر. وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام[٥] « **النَّدَمُ تَوْبَةٌ** » إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه. فيكون الندم محفوفاً بطرفيه، أعنى ثمرته ومثمره. وبهذا الاعتبار قيل فى حد[٦] التوبة أنه « **ذوبان الحشا لما سبق من الخطا** ». فإن هذا يعرض لمجرد الألم. ولذلك قيل هو نار فى القلب تلتهب، وصدع فى الكبد لا ينشعب[٧]. وباعتبار معنى الترك قيل فى حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء. وقال سهل بن عبد الله التسترى: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة. ولا يتم ذلك إلا بالخلوة، والصمت، وأكل الحلال. وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة.

والأقاويل فى حدود التوبة لا تنحصر. وإذا فهمت هذه المعانى الثلاثة، وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل فى حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها. وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة.

---

(٥) حديث الندم توبة : ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح اسناده من حديث ابن مسعود ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

(٦) تعريفها .

(٧) الصدع الشق ، والانشعاب : الالتئام .

الفصل الثانى

بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار[٨] والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسمى بنوره الذى بين يديه فى ظلمات الجهل ، مستغنياً عن قائد يقوده فى كل خطوة . فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد فى خطوه ، وإما بصير يهدى إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه . وكذلك الناس فى طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام . فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد فى خطوة ، يفتقر إلى أن يسمع فى كل قدم نصاً من كتاب الله أو سنة رسوله ، وربما يعوزه ذلك فيتحير . فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر ، وخطاه قاصرة . ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام ، فهو على نور من ربه ، فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصة ، وقطع عقبات متعبة . ويشرق فى قلبه نور القرآن ونور الإيمان . وهو لشدة نور باطنه يجتزىء بأدنى بيان ، فكأنه يكاد زيته يضىء ولو لم تمْسَسْه نار . فإذا مسته نار فهو نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول فى كل واقعة .

---

(٨) حديث الأخبار الدالة على وجوب التوبة : مسلم من حديث الأغر المزنى يا أيها الناس توبوا إلى الله الحديث : ولابن ماجه من حديث جابر يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا ـــ الحديث : وسنده ضعيف .

ماذا يفعل من أراد أن يعرف وجوب التوبة ؟

فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة ، فينظر أولاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هى ، ثم إلى الوجوب ما معناه ، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة ، فلا يشك فى ثبوته لها وذلك بأن يعلم معنى الواجب ما هو واجب فى الوصول إلى سعادة الأبد ، والنجاة من هلاك الأبد ، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه ؛ لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى . وقول القائل صار واجبا بالإيجاب حديث محض . فإن ما لا غرض لنا آجلاً وعاجلاً فى فعله وتركه ، فلا معنى لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه . فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة الى سعادة الأبد ، وعلم أن لا سعادة فى دار البقاء إلا فى لقاء الله تعالى ، وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة ، محول بينه وبين ما يشتهى ، محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات ، والأنس بهذا العالم الفانى ، والإكباب على حب ما لابد من فراقه قطعاً ، وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم ، والإقبال بالكلية على الله طلباً للأنس به بدوام ذكره ، وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته .

لزوم التوبة للعبد

وعلم أن الذنوب التى هى إعراض عن الله ، واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته ، سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله تعالى . فلا يشك فى أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب . وإنما يتم الانصراف بالعلم ، والندم ، والعزم فإنه مالم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن

المحبوب لم يندم ، ولم يتوجع بسبب سلوكه فى طريق العبد . وما لم يتوجع فلا يرجع . ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك فى أن المعانى الثلاثة ضرورية فى الوصول إلى المحبوب . وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ، ففى التقليد والاتباع له مجال رحب ، يتوصل به إلى النجاة من الهلاك ، فليلاحظ فيه قول الله ، وقول رسوله ، وقول السلف الصالحين . فقد قال الله تعالى ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾(٩) وهذا أمر على العموم . وقال الله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً** ﴾(١٠) الآية ، ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خالياً عن الشوائب مأخوذ من النصح . ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾(١١) . وقال عليه السلام(١٢) « **التَّائِبُ حَبِيبُ اللهِ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ** » .

فرح الله بتوبة العبد

وقال رسول الله ﷺ(١٣) : « **للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مُهْلِكَةٍ(١٤) مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ**

---

(٩) النور : ٣١

(١٠) التحريم : ٨.　　　　(١١) البقرة : ٢٢٢

(١٢) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له : ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشطر الثانى دون الأول وأما الشطر الأول فروى ابن أبى الدنيا فى التوبة وأبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف « إن الله يحب الشاب التائب » ولعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وأبو يعلى بسند ضعيف من حديث على « إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب » .

(١٣) حديث لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى أرض فلاة دوية مهلكة ــ الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس زاد مسلم فى حديث أنس ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بدون هذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبى هريرة مختصراً .

(١٤) الدَّوِّيَّة : المفازة ، والفلاة : الواسعة .

نَوْمَةً فاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ فطَلَبَهاَ حَتَّى إذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَش أَوْ مَاشَاءَ اللهُ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِى الَّذِى كُنْتُ فِيه فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِه لِيَمُوتَ فاَسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ عَلَيْهَا زَادُهُ وَشَرابُهُ فَاللهُ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ » وفى بعض الألفاظ قال من شدة فرحة ، إذ أراد شكر الله ، أنا ربك وأنت عبدى .

ويروى عن الحسن قال : لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام : هنأته الملائكة ، وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام . فقالا يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك . فقال آدم عليه السلام : يا جبريل ، فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى ؟ فأوحى الله إليه يا آدم ، ورثت ذريتك التعب والنصب ، وورثتهم التوبة . فمن دعانى منهم لبيته كما لبيتك ، ومن سألنى المغفرة لم أبخل عليه ، لأنى قريب مجيب يا آدم ، وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ، ودعاؤهم مستجاب . والأخبار والآثار فى ذلك لا تحصى ، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها ، إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصى مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل فى وجوب الإيمان ، ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ، ولا خلاف فى وجوبها .

ومن معانيها ترك المعاصى فى الحال ، والتزم على تركها فى الاستقبال ، وتدارك ما سبق من التقصير فى سابق الأحوال ، وذلك لا يشك فى وجوبه وأما التندم على ما سبق ، والتحزن عليه ، فواجب . وهو روح التوبة ، وبه تمام التلافى . فكيف لا يكون واجباً ! بل هو نوع ألم يحصل لا محالة ، عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع فى سخط الله .

فإن قلت : تألم القلب أمر ضرورى لا يدخل تحت الاختيار ، فكيف يوصف بالوجوب ؟

فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب . وله سبيل إلى تحصيل سببه . وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب ، لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد

ويحدثه فى نفسه، فإن ذلك محال. بل العلم، والندم، والفعل، والإرادة، والقدرة، والقادر، الكل من خلق الله وفعله ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾[١٥] هذا هو الحق عند ذوى البصائر. وما سوى هذا ضلال.

بحث فى أفعال العبد
وهل له اختيار

فإن قلت. أفليس للعبد اختيار فى الفعل والترك؟ قلنا نعم: وذلك لا يناقض قولنا إن الكل من خلق الله تعالى. بل الاختيار أيضاً من خلق الله. والعبد مضطر فى الاختيار الذى له فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة، وخلق الطعام اللذيذ، وخلق الشهوة للطعام فى المعدة، وخلق العلم فى القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة، وخلق الخواطر المتعارضة فى أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا، ثم خلق العلم بأنه لا مانع، ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول. فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة، وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختياراً، ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه. فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها، تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة. إذ بعد تمام الإرادة والقدرة، يكون حصول الفعل ضرورياً فتحصل الحركة، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة، وهما أيضاً من خلق الله. وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة، والعلم بعدم الموانع، وهما أيضاً من خلق الله تعالى. ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيباً جرت به سنة الله تعالى فى خلقه. ولن تجد لسنة الله تبديلاً. فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة، وما لم يخلق فيها حياة، وما لم يخلق إرادة مجزومة. ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوة

---

(١٥) الصافات: ٩٦.

وميلا فى النفس ولا ينبعث هذا الميل انبعاثاً تاماً ما لم يخلق علماً بأنه موافق للنفس ، إما فى الحال أو فى المآل . ولا يخلق العلم أيضاً إلا بأسباب أخرى ترجع إلى حركة وإرادة وعلم . فالعلم والميل الطبيعى أبداً يستتبع الإرادة الجازمة ، والقدرة والإرادة أبداً تستردف الحركة ، وهكذا الترتيب فى كل فعل . والكل من اختراع الله تعالى . ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض . فلذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض ، كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم ، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ، ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم . فيكون خلق الجسم شرط لحدوث الحياة ، لا أن الحياة تتولد من الجسم . ويكون خلق الحياة شرطاً لخلق العلم ، لا أن العلم يتولد من الحياة . ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حياً ، ويكون خلق العلم شرطاً لجزم الإرادة ، لا أن العلم يولد الإرادة . ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حى عالم . ولا يدخل فى الوجود إلا ممكن ، وللإمكان ترتيب لا يقبل التغيير ، لأن تغييره محال . فمهما وجد شرط الوصف استند المحل به لقبول الوصف ، فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهى والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد . ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب ، كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب . والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة : وهى مرتبة فى قضاء الله تعالى الذى هو واحد كلمح البصر ترتيباً كلياً لا يتغير . وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها . وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ **إنَّا كُلَّ شَىء خَلَقْنَاهُ بِقَدَر** ﴾[16] وعن القضاء الكلى الأزلى العبارة بقوله تعالى ﴿ **وَما أَمْرُنَا إلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَر** ﴾[17] وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر . ومن جملة القدر خلق حركة فى يد الكاتب ، بعد خلق صفة مخصوصة فى يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم فى نفسه يسمى القصد ، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة .

---

(١٦) القمر [illegible] .

(١٧) القمر [illegible] .

فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت التقدير، سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل، قد تحركت، ورميت، وكتبت. ونودي من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت ﴿**وَما رميْتَ إذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رمى**﴾[18] وما قتلت إذ قتلت، ولكن ﴿**قَاتِلوُهُمْ يُعَذِّبهُم اللهُ بِأَيْديكُمْ**﴾[19] وعند هذا تحير عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة، فمن قائل إنه جبر محض، ومن قائل إنه اختراع صرف، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب. ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت، لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه، وأن القصور شامل لجميعهم، فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر، ولم يحط علمه بجوانبه. وتمام علمه ينال بإشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحداً، إلا من ارتضى من رسول. وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء.

سِرّ القدر

ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها، ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب، انكشف له سر القدر وعلم علماً يقيناً أن لا خالق إلا الله، ولا مبدع سواه.

فإن قلت: قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر، والاختراع، والكسب، أنه صادق من وجه، وهو مع صدقه قاصر. وهذا تناقض، فكيف يمكن فهم ذلك؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال؟.

فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل، وما كانوا قط شاهدوا صورته، ولا سمعوا اسمه. فقالوا لا بد لنا

(18) الأنفال: ١٧

(19) التوبة: ١٤

من مساهدته ومعرفه باللمس الذى تقدر عليه ، فطلبوه ، فلما وصلوا إليه لمسوه . فوقع يد بعض العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ، ووقع يد بعضهم على أذنه . فقالوا قد عرفناه . فلما انصرفوا سألهم بقية العميان ، فاختلف أجوبتهم . فقال الذى لمس الرجل : إن الفيل ما هو إلا مثل اسطوانة خشنة الظاهر ، إلا أنه ألين منها . وقال الذى لمس الناب : ليس كما يقول ، بل هو صلب لا لين فيه ، وأملس لا خشونة فيه ، وليس فى غلظ الأسطوانة أصلاً ، بل هو مثل عمود : وقال الذى لمس الأذن : لعمرى هو لين وفيه خشونة . فصدق أحدهما فيه . ولكن قال . ما هو مثل عمود ، ولا هو مثل اسطوانة ، وإنما هو مثل جلد عريض غليظ . فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه ، إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ، ولم يخرج واحد فى خبره عن وصف الفيل . ولكنهم بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل اختصر بهذا المثال واعتبر به ، فإنه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه . وإن كان هذا كلاماً يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها ، وليس ذلك من غرضنا .

وجوب التوبة بجميع أجزائها

فلنرجع إلى ما كنا بصدده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة . العلم ، والندم ، والترك ، وأن الندم داخل فى الوجوب ، لكونه واقعاً فى جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد ، وإرادته ، وقدرته المتخللة بينها ، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله .

الفصل الثالث

بيان أن وجوب التوبة على الفور

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه . إذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الإيمان ، وهو واجب على الفور . والمتقصى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه . فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لا تتعلق بعمل ، بل هى من علوم المعاملة . وكل علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التقصى عن عهدته ما لم يصر باعثاً عليه . فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان . وهو المراد بقوله عليه السلام(٢٠) « **لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ** » وما أراد به نفى الإيمان الذى يرجع إلى علوم المكاشفة ، كالعلم بالله ، ووحدانيته ، بصفاته ، وكتبه ؛ ورسله ، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصى . وإنما أراد به نفى الإيمان لكون الزنا مبعداً عن الله تعالى . موجباً للمقت . كما إذا قال الطبيب : هذا سم فلا تتناوله فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن ، لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب ، وكونه طبيباً وغير مصدق به . بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك . فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلاً . فالعاصى بالضرورة ناقص الإيمان . وليس الإيمان باباً واحداً ، بل هو نيف وسبعون باباً ، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . ومثاله قول القائل . ليس الإنسان موجوداً واحداً ، بل هو نيف وسبعون موجوداً ، أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى عن البشرة ، بأن يكون مقصوص الشارب ، مقلوم الأظفار ، نقى البشرة من الخبث ، حتى

---

(٢٠) حديث لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبى هريرة .

يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها ، المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها .

وهذا مثال مطابق : فالإيمان كالإنسان ، وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح ، والذى ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين ، فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة ، لا أصل الروح . وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت ، فتزايله الروح الضعيفة ، المنفردة ، التى تخلف عنها الأعضاء التى تمدها وتقويها ، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان ، وهو مقصر فى الأعمال ، قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة ، المحركة للإيمان فى مقدمة قدوم ملك الموت وورود‌ه فكل إيمان لم يثبت فى اليقين أصله ، ولم تنتشر فى الأعمال فروعه ، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت ، وخيف عليه سوء الخاتمة ، لا مايسقى بالطاعات على توالى الأيام والساعات ، حتى رسخ وثبت. وقول العاصى للمطيع : إنى مؤمن كما أنك مؤمن ، كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر أنا شجرة وأنت شجرة . وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت : ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف ، فعند ذلك تنقطع أصولك ، وتتناثر أوراقك ، وينكشف غرورك بالمشاركة فى اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار .

وسوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفَرَسٌ تَحتك أم حِمـــارُ

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة . وإنما انقطع نياط العارفين خوفاً من دواعى الموت ومقدماته الهائلة ، التى لا يثبت عليها إلا الأقلون . فالعاصى إذا كان لا يخاف الخلود فى النار بسبب معصيته ، كالصحيح المنهمك فى الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته . وإنّ الموت غالباً لا يقع فجأة ، فيقال له : الصحيح يخاف المرض ، ثم إذا مرض خاف الموت وكذلك العاصى يخاف سوء

الخاتمة ، ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود فى النار فالمعاصى للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان ، فلا تزال تجتمع فى الباطن حتى تغير مزج الأخلاط وهو لا يشعر بها ، إلى أن يفسد المزاج ، فيمرض دفعة ، ثم يموت دفعة . فكذلك المعاصى . فإذا كان الخائف من الهلاك فى هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم ، وما يضره من المأكولات فى كل حال وعلى الفور ، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه . وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ، ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة ، على سبيل الفور والمبادرة ، تلافياً لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية ، فمتناول سموم الدين وهى الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ، ما دام يبقى للتدراك مهلة وهو العمر ، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية ، التى فيها النعيم المقيم ، والملك العظيم ، وفى فواتها نار الجحيم ، والعذاب المقيم الذى تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته ، إذا ليس لمدته آخر ألبتة . فالبدار البدارَ إلى التوبة ، قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ، ولا ينفع بعده الاحتماء ، فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ، ووعظ الواعظين ، وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ، ويدخل تحت عموم قوله تعالى ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أغلالاً فَهِي إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بين أَيْدِيهِمْ سَداً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾[٢١] . ولا يغرنك لفظ الإيمان فتقول : المراد بالآية الكافر ، إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون باباً ، وأن الزانى لا يزنى حين يزنى وهو مؤمن . فالمحجوب عن الإيمان الذى هو شعب وفروع سيحجبُ فى الخاتمة عن الإيمان الذى هو أصل . كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التى هى حروف وفروع ، سيساق إلى الموت المعدم للروح التى هى أصل ، فلا بقاء للأصل دون الفرع ، ولا وجود للفرع دون

(٢١) يس : ٨ ، ٩ ، ١٠ .

الأصل ، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا فى شىء واحد ، وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعى وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعى وجود الفرع فبقاء الأصل بالفرع ، ووجود الفرع بالأصل ، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل ، فلا يستغنى أحدهما عن الآخر . وإن كان أحدهما فى رتبة الأصل والآخر فى رتبة التابع . وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فإن هى لم تعمل عملها الذى تراد له . قامت مؤيدة للحجة على صاحبها . ولذلك يزاد فى عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر . كما أوردنا من الأخبار فى كتاب العلم .

الفصل الرابع

بيان أن وجوب التوبة عام
فى الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتَّةَ

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا، إذ قال تعالى ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّها الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾[٢٢] فعمم الخطابَ. ونور البصيرة أيضاً يرشد إليه، معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله، المقرب إلى الشيطان.

ولا يُتَصَوَّرُ ذلك إلا من عاقل، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة، والغضب وسائر الصفات المذمومة التى هى وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان، إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين. وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ، ومباديه تظهر بعد سبع سنين، والشهوات جنود الشيطان، والعقول جنود الملائكة، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة، إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار، والنور والظلمة. ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة. وإذا كانت الشهوات تكمل فى الصبا والشباب قبل كمال العقل، فقد سبق جند الشيطان، واستولى على المكان، ووقع للقلب به أنس، وألف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة. وغلب ذلك عليه، ويعسر عليه النزوع عنه. ثم يلوح العقل الذى هو حزب الله وجنده، ومنقذ أوليائه من أيدى أعدائه شيئاً فشيئاً على التدريج، فإن لم يقو ولم يكمل، سلمت مملكة القلب للشيطان،

(٢٢) النور : ٣١

وأنجز اللعين موعده حيث قال ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلاَّ قَلِيلاً ﴾[٢٣] وإن كمل العقل وقوى ، كان أوَّل شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ، ومفارقة العادات ، ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات . ولا معنى للتوبة إلا هذا ، وهو الرجوع عن طريق ، دليله الشهوة ، وخفيره الشيطان ، إلى طريق الله تعالى . وليس فى الوجود آدمى إلا وشهوته سابقة على عقله ، وغريزته التى هى عدة الشيطان متقدمة على غريزته التى هى عدة الملائكة ، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضرورياً فى حق كل إنسان ، نبياً كان أو غبياً ، فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام . وقد قيل .

فلا تحسبنَّ هنداً لها الغدرُ وحدَها سجية نفسٍ كلُّ غانيةٍ هِنْدُ

بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس الإنس ، لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدل السنة الإلٰهية التى لا مطمع فى تبديلها . فإذاً كل من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من جهله وكفره . فإذا بلغ مسلماً تبعاً لأبويه ، غافلاً عن حقيقة إسلامه ، فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام ، فإنه لا يغنى عنه إسلام أبويه شيئاً ما لم يسلم بنفسه ، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف ، بالرجوع إلى قالب حدود الله فى المنع والإطلاق ، والانفكاك ، والاسترسال ، وهو من أشق أبواب التوبة ، وفيه هلك الأكثرون ، إذ عجزوا عنه . وكل هذا رجوع وتوبة .

فدل أن التوبة فرض عين فى حق كل شخص ، لا يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر ، كما لم يستغن آدم . فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلاً .

وأما بيان وجوبها على الدوام ، وفى كل حال ، فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه . إذ لم يخلُ عنه الأنبياء ، كما ورد فى القرآن والأخبار من

٢٣) الأسراء : ٦٢

خطايا الأنبياء ، وتوبتهم ، وبكائهم على خطاياهم . فإن خلا فى بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب فإن خلا فى بعض الأحوال عن الهم ، فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله . فإن خلا عنه ، فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله ، وصفاته ، وأفعاله . وكل ذلك نقص ، وله أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده ، والمراد بالتوبة الرجوع . ولا يتصور الخلو فى حق الآدمى عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون فى المقادير . فأما الأصل فلا بد منه . ولهذا قال عليه السلام[٢٤] « **إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّىٰ أَسْتَغْفِرَ اللهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً** » الحديث ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَاتَأَخَّرَ** ﴾[٢٥] وإذا كان هذا حاله ، فكيف حال غيره ؟

فإن قلت : لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص ، وأن الكمال فى الخلو عنه ، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص ، وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال ، وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع ، والرجوع توبة ، ولكن هذه فضائل لا فرائض ، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة فى كل حال ، والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة ، إذ إدراك الكمال غير واجب فى الشرع . فما المراد بقولك التوبة واجبة فى كل حال ؟ .

فاعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو فى مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلاً . وليس معنى التوبة تركها فقط ، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى . وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه ، كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة . فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار ريناً ، كما

---

(٢٤) حديث إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة : مسلم من حديث الأغر المزنى إلا أنه قال فى اليوم مائة مرة وكذا عند أبى دواد وللبخارى من حديث أبى هريرة إنى لأستغفر الله فى اليوم أكثر من سبعين مرة وفى رواية البيهقى فى الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم فى الأذكار والدعوات .

(٢٥) الفتح

عبير بخار النفس فى وجه المرآة عند تراكمه خبثاً ، كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[٢٦] فإذا تراكم الرين صار طبعاً[٢٧] ، فيطبع على قلبه ، كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه ، غاص فى جرم الحديد وأفسده ، وصار لا يقبل الصقل بعده ، وصار كالمطبوع من الخبث . ولا يكفى فى تدارك اتباع الشهوات تركها فى المستقبل ، بل لا بد من محو تلك الأريان التى انطبعت فى القلب . كما لا يكفى فى ظهور الصور فى المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها فى المستقبل ، ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان . وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصى والشهوات ، فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتنمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام[٢٨] « أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » .

فإذا لا يستغنى العبد فى حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه ، بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار السيئات هذا فى قلب حصل أولاً صفاؤه وجلاؤه ، ثم أظلم بأسباب عارضة .

فأما التصقيل الأول ففيه يطول الصقل ، إذ ليس شغل الصقل فى إزالة الصدأ عن المرآة كشغله فى عمل أصل المرآة . فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلاً . وكل ذلك يرجع إلى التوبة .

فأما قولك : إن هذا لا يسمى واجباً ، بل هو فضل وطلب كمال ، فاعلم أن الواجب له معنيان أحدهما : ما يدخل فى فتوى الشرع ، ويشترك فيه كافة الخلق ، وهو القدر الذى لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم ، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية . ثم يؤدى ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية ، فإنه مهما فسدت المعايش لم يتفرغ

---

(٢٦) المطففين : ١٤

(٢٧) الطبع : الختم ، والرين الخبث الوسخ .

(٢٨) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها : الترمذى من حديث أبى ذر بزيادة فى أوله وآخره وقال حسن صحيح وقد تقدم فى رياضة النفس .

أحد للتقوى بل شغل الحياكة ، والحراثة ، والخبز ، يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه ، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار .

والواجب الثانى : هو الذى لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين ، والمقام المحمود بين الصديقين . والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبه فى الوصول إليه . كما يقال الطهارة واجبة فى صلاة التطوع ، أى لمن يريدها ، فإنه لا يتوصل إليها إلا بها . فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع ، فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها . كما يقال العين ، والأذن ، واليد ، والرجل ، شرط فى وجود الإنسان . يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً ينتفع بإنسانيته ، ويتوصل بها إلى درجات العلا فى الدنيا . فأما من قنع بأصل الحياة ، ورضى أن يكون كلحم على وضم[٢٩] ، وكخرقة مطروحة ، فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ، ويد ، ورجل . فأصل الواجبات الداخلة فى فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة . وأصل النجاة كأصل الحياة ، وما وراء أصل النجاة من السعادات التى بها تنتهى الحياة ، يجرى مجرى الأعضاء والآلات التى بها تتهيأ الحياة ، وفيه سعى الأنبياء ، والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل ، وعليه كان حرصُهم ، وحواليه كان تَطْوافُهم ، ولأجله كان رفضُهم لملاذّ الدنيا بالكلية ، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجراً فى منامه ، فجاء إليه الشيطان وقال : أما كنت تركت الدنيا للآخرة ؟ فقال نعم وما الذى حدث ؟ فقال توسدك لهذ الحجر تنعم فى الدنيا ، فلم لا تضع رأسك على الأرض ؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ، ووضع رأسه على الأرض . وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم . أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجباً فى فتاوى العامة ؟ .

أفترى أن نبينا محمداً ﷺ[٣٠] لما شغله الثوب الذى كان عليه علم[٣١] فى

(٢٩) الوضم : خشبة الجزار التى يقطع اللحم فوقها والمراد أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً .
(٣٠) حديث نزعه ﷺ الذى كان عليه فى الصلاة : تقدم فى الصلاة أيضاً .
(٣١) علمُ الثوب : رسمُه ورقْمُه

صلاته حتى نزعه[٣٢] ، وشغله شِراكُ[٣٣] نعله الذى جدده حتى أعاد الشراك الخلَق ، لم يعلم أن ذلك ليس واجباً فى شرعه الذى شرعه لكافة عباده ؟ فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه ؟ وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثراً فى قلبه أثراً يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذى قد وعد به ؟ .

أفترى أن الصديق رضى الله عنه بعد أن شرب اللبن ، وعلم أنه على غير وجهه ، أدخل أصبعه فى حلقه ليخرجه ، حتى كاد يخرج معه روحه ، ما علم من الفقه هذا القدر ، وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ، ولا يجب فى فتوى الفقه إخراجه فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه ؟ وهل كان ذلك إلا لسر وقر فى صدره ، عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر ، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون ؟ .

فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله ، وبطريق الله ؛ وبمكر الله ؛ وبمكامن الغرور بالله . وإياك مرة واحدة أن تغرك الحياة الدنيا ، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور[٣٤] . فهذه أسرارٌ من استنشق مبادى روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك فى طريق الله تعالى . فى كل نفسٍ من أنفاسه ، ولو عمِّر عُمْرَ نوح ، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة . ولقد صدق أبو سليمان الدارانى حيث قال : لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على تفويت ما مضى منه فى غير الطاعة ، لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات . فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله ! وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة : وضاعت منه بغير فائدة ، بكى عليها لا محالة . وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه ، كان بكاؤه منها أشد . وكل ساعة من العمر ، بل كل نفس جوهرة نفيسة ، لا خلف لها ، ولابدل منها، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد، وتنقذك من شقاوة الأبد . وأى جوهر أنفس من هذا ؟ فإذا ضيعتها فى الغفلة ، فقد

---

(٣٢) حديث نَزْعِه الشراك الجديدَ وإعادة الشراك الخلَق : تقدم فى الصلاة أيضاً .

(٣٣) شراك النعل : سير النعل على ظهر القدم .

(٣٤) الغَرور : بفتح الغَين ــ الشيطان .

خسرت خسراناً مبيناً . وإن صرفتها إلى معصية ، فقد هلكت هلاكاً فاحشاً . فإن كنت لا تبكى على هذه المصيبة ، فذلك لجهلك . ومصيبتك بجهلك أعظم . من كل مصيبة ، لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة . فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته ، والناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ، ولكل مصاب مصيبته . وقد رفع الناس عن التدارك .

قال بعض العارفين : إن مَلَك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد ، أعلمه أنه قد بقى من عمرك ساعة ، وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين . فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت الدنيا بحذافيرها[٣٥] لخرج منها ؛ على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ، ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه ، فلا يجد إليه سبيلاً . وهو أول ما يظهر من معانى قوله تعالى ﴿ **وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وبين ما يَشْتَهُونَ** ﴾[٣٦] وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا** ﴾[٣٧] فقيل الأجل القريب الذى يطلبه . معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد : يا ملك الموت ، أخرنى يوماً أعتذر فيه إلى ربى وأتوب ، وأتزود صالحاً لنفسى فيقول : فنيت الأيام فلا يوم . فيقول : فأخرنى ساعة . فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة ، فيتغرْغر بروحه ، وتتردد أنفاسه فى شر أسفه ، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك ، وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرب أصل إيمانه فى صدمات تلك الأحوال . فإذا زهقت نفسه ، فإن كان سبقت له من الله الحسنى ، خرجت روحه على التوحيد ، فذلك حسن الخاتمة . وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله ، خرجت روحه على الشكّ والاضطراب ، وذلك سوء الخاتمة . ولمثل هذا يقال « **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يعملُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ** »[٣٨] وقوله ﴿ **إِنَّما التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذينَ يَعْمَلُونَ السُّوءِ بجهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** ﴾[٣٩] ومعناه عن قرب عهد

(٣٥) حذافير الشىء أعاليه ونواحيه . الواحِد حذفار بالكسر . مختار .

(٣٦) سبأ : ٥٤ (٣٧) المنافقون : ١٠ ، ١١ (٣٨) النساء : ١٨ (٣٩) النساء : ١٧

الخطيئة بأن يتندم عليها ، ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو .

ولذلك قال ﷺ « **أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا** » ولذلك قال لقمان لابنه : يا بنى لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتى بغتة . ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف . كان بين خطرين عظيمين : أحدهما : أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى ، حتى يصير رينا[٤٠] وطبعاً ، فلا يقبل المحو ، الثانى : أن يعاجله المرض أو الموت ، فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو . ولذلك ورد فى الخبر[٤١] « **إِنَّ أَكْثَرَ صِيَاحِ أَهْلِ النَّارِ مِنَ التَّسْوِيفِ** » **فما هلك من هلك !! إلا بالتسويف**. فيكون تسويده القلب نقداً ، وجلاؤه بالطاعة نسيئة ، إلى أن يختطفه الموت فيأتى الله بقلب غير سليم . ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم . فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده ، والعمر أمانة الله عنده . وكذا سائر أسباب الطاعة . فمن خان فى الأمانة ولم يتدارك خيانته ، فأمره مخطر . قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام . أحدهما : إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبدى ، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً ، واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة ، وانظر إلىّ كيف تلقانى . والثانى : عند خروج روحه يقول : عبدى ، ماذا صنعت فى أمانتى عندك ؟ هل حفظتها حتى تلقانى على العهد ، فألقاك على الوفاء ؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب ؟ وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ **أَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ** ﴾[٤٢] وبقوله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ** ﴾[٤٣]

---

(٤٠) الرَّين : الطبع والدنس . يقال ران دنبة على قلبه أى غلب . قال أبو عبيدة : فى قوله تعالى : ﴿ **كلا بَلْ ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ أى غلب . وقال الحسن رضى الله عنه : هو الذنب على الذنب حتى يَسْوَادّ القلب . وقال أبو عبيد : كل ما غلبك فقد ران بك . ورانك وران غليك .

(٤١) حديث إن أكثر صياح أهل النار من التسويف لم أجد له أصلاً .

(٤٢) البقرة : ٤٠ . (٤٣) المؤمنون : ٨

الفصل الخامس

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهى مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول ، لم تَشُكَّ فى أن كل توبة صحيحة فهى مقبولة . فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن ، علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ، ومتنعم فى الآخرة فى جوار الله تعالى ، ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى وعلموا أن القلب خلق سليماً فى الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة ، وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها . وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبْرة ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات . كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار ، بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون . وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه . فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون فى جواره . وكما أن استعمال الثوب فى الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب ، وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محاله . فاستعمال القلب فى الشهوات يوسخ القلب ، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ، ويطهره ، ويزكيه ، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول ، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول . فإنما عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلى الذى لا مرد له . وهو المسمى فلاحاً فى قوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾(٤٤) .

---

(٤٤) الشمس : ٩

ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر، أن القلب يتأثر بالمعاصى والطاعات تأثراً متضاداً، يستعار لأحدهما لفظ الظلمة، كما يستعار للجهل، ويستعار للآخر لفظ النور، كما يستعار للعلم، وأن بين النور والظلمة تضاداً ضرورياً، لا يتصور الجمع بينهما. فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره، ولم يعلق به إلا أسماؤه، وقلبه فى غطاء كثيف عن حقيقة الدين. بل عن حقيقة نفسه، وصفات نفسه. ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل. وأعنى به قلبه. إذ بقلبه يعرف قلبه. فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه.

فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل، كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول. إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب وخلله، فلا يقوى الصابون على قلعه. فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعاً ورينا على القلب. فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب. نعم: قد يقول باللسان: تبت، فيكون ذلك كقول القَصَّار[٤٥] بلسانه قد غسلت الثوب، وذلك لا ينظف الثوب أصلاً، ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به. فهذا حال امتناع أصل التوبة، وهو غير بعيد، بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا، المعرضين عن الله بالكلية. فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر فى قبول التوبة. ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات، والأخبار، والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به. وقد قال تعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعفو عَنِ السَّيِّئَاتِ**﴾[٤٦] وقال تعالى ﴿**غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ**﴾[٤٧] إلى غير ذلك من الآيات.

---

(٤٥) القصَّار: الذى يدق الثياب ويُبَيِّضُها ويحورها.

(٤٦) الشورى: ٢٥

(٤٧) غافر: ٣

وقال ﷺ « **للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ** » الحديث . والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال ﷺ(٤٨) « **إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَه بِالتَّوْبَةِ لِمُسيء اللَّيْلِ إِلَى النَّهَارِ وَلِمُسِيءِ النَّهَارِ إِلَى اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا** » وبسط اليد كناية عن طلب التوبة . والطالب وراء القابل ، فرب قابل ليس بطالب ، ولا طالب إلا وهو قابل . وقال ﷺ(٤٩) « **لَوْ عَمِلْتُمُ الخطَايَا حَتَّى تَبْلُغَ السَّماءَ ثم نَدِمْتُمْ لَتَاب اللهُ عَلَيْكُمْ** » وقال أيضاً(٥٠) « **إن الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذنب فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّة** » فقيل كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال « **يَكُونُ نَصْبَ عَيْنِهِ تَائِباً مِنْهُ فَاراً حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنة** » وقال ﷺ(٥١) « **كَفَّارَةُ الذَّنْبِ النَّدَامَةُ** » وقال ﷺ « **التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ** » .

ويروى(٥٢) أن حبشياً قال يا رسول الله ، إنى كنت أعمل الفواحش ، فهل لى من توبة ؟ قال نَعَم . فولّى ثم رجع فقال : يا رسول الله ، أكان يرانى وأنا أعملها ؟ قال نَعَم . فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه . ويروى(٥٣) أن

---

(٤٨) حديث الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ــ الحديث : مسلم من حديث أبى موسى بلفظ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ــ الحديث : وفى رواية للطبرانى لمسيء الليل أن يتوب بالنهار ــ الحديث .

(٤٩) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم ابن ماجه من حديث أبى هريرة واسناده حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبتم .

(٥٠) حديث ان العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة ــ الحديث : ابن المبارك فى الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلاً ولأبى نعيم فى الحلية من حديث أبى هريرة أن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له ــ الحديث : وفيه صالح المرى وهو رجل صالح لكنه مضعف فى الحديث ولابن أبى الدنيا فى التوبة من حديث ابن عمران إن الله لينفع العبد بالذنب بذنبه والحديث غير محفوظ قاله العقيلى .

(٥١) حديث كفارة الذنب الندامة : أحمد والطبرانى وهو فى الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمر ابن مالك اليشكرى ضعيف .

(٥٢) حديث إن حبشياً قال يا رسول الله انى كنت أعمل الفواحش فهل من توبة قال نعم ــ الحديث : لم أجد له أصلاً .

(٥٣) حديث إن الله لما لعن ابليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح ــ الحديث : أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد ان الشيطان قال وعزتك يا رب لا أزال أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم فقال وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى أورده المصنف بصيغة ويروى كذا ولم يعزه إلى النبى ﷺ فذكرته إحتياطاً

الله عز وجل لما لعن إبليس ، سأله النَّظِرة[٥٤] فأنظره إلى يوم القيامة . فقال : **وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى . وعزتى** وجلالى لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيها . وقال ﷺ[٥٥] « **إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات كَمَا يُذْهِبُ الْمَاءُ الوَسخَ** » والأخبار فى هذا لا تحصى .

وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب : أنزل قوله تعالى ﴿ **فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً** ﴾[٥٦] الرجل يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل : قال الله تعالى : بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم . وحذّر الصديقين أنى إن وضعت عليهم عدلى عذبتهم . وقال طلق بن حبيب . إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : من ذكر خطيئة ألمّ بها ، فوجل منها قلبه ، محيت عنه فى أم الكتاب .

ويروى أن نبياً من أنبياء بنى إسرائيل أذنب ، فأوحى الله تعالى إليه ، وعزتى لئن عدت لأعذبنك . فقال يارب ، أنت أنت ، وأنا أنا ، وعزتك إن لم تعصمنى لأعودن . فعصمه الله تعالى . وقال بعضهم . إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة . فيقول إبليس : ليتنى لم أوقعه فى الذنب .

وقال حبيب بن ثابت . تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة ، فيمر بالذنب فيقول : أما إنى قد كنت مشفقاً منه ، قال : فيغفر له .

ويروى أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألمّ به ، هل له من توبة ؟ فأعرض عنه ابن مسعود ، ثم التفت إليه ، فرأى عينيه تذرفان . فقال له : إن

---

(٥٤) النَّظِرة : الإمهال .. والتأجيل ﴿ **قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾ .. ﴿ **قال فإنك من المنظرين** ﴾ [الحجر : ٣٧]

(٥٥) حديث إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ : لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى أتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذى وتقدم قريباً .

(٥٦) الاسراء : ٢٥

للجنة ثمانية أبواب ، كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة ، فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يغلق ، فاعمل ولا تيأس .

وقال عبد الرحمن بن أبى القاسم . تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر ، وقول الله تعالى ﴿ **إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ** ﴾(٥٧) فقال إنى لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالاً . ولقد بلغنى أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام . لا أحدثكم إلا عن نبى مرسل ، أو كتاب منزل . إن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفة عين ، سقط عنه أسرع من طرفة عين . وقال عمر رضى الله عنه : اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة . وقال بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لى . قيل ومتى ؟ قال إذا تاب على . وقال آخر : أنا من أن أحْرَم التوبة أخوفُ من أن أُحْرَم المغفرة . أى المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة .

ويروى أنه كان فى بنى إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ، ثم عصاه عشرين سنة . ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته ، فساءه ذلك ، فقال : إلٰهى أطعتك عشرين سنة ، ثم عصيتك عشرين سنة . فإن رجعت إليك أتقبلنى ؟ فسمع قائلاً يقول ولا يرى شخصاً . أحببتنا فأحببناك ، وتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلناك وإن رجعت إلينا قبلناك .

وقال ذو النون المصرى رحمة الله تعالى : إن لله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب ، وسقوها بماء التوبة ، فأثمرت ندماً وحزناً . فجنوا من غير جنون ، وتبلدوا من غير عىّ ولا بكم ، وأنهم هم البلغاء الفصحاء ، العارفون بالله ورسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ، ثم تولهت قلوبهم فى الملكوت . وجالت أفكارهم بين سرايا . حجب الجبروت ، واستظلوا تحت رواق الندم ، وقرءوا صحيفة الخطايا ، فأورثوا أنفسهم الجزع ، حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع ، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا ، واستلانوا خشونة المضجع ، حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة ،

---

(٥٧) الأنفال : ٣٨

وسرحت أرواحهم فى العلا ، حتى أناخوا فى رياض النعيم ، وخاضوا فى بحر الحياة ، وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى ، حتى نزلوا بفناء العلم ، واستقوا من غدير الحكمة ، وركبوا سفينة الفطنة ، وأقلعوا بريح النجاة فى بحر السلامة ، حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة . فهذا القدر كاف فى بيان أن كل توبة صحيحة فمقبولة لا محالة .

فإن قلت : أفتقول ما قالته المعتزلة ، من أن قبول التوبة واجب على الله ؟

فأقول : لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله ، إلا ما يريده القائل بقوله إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ . وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش . وإنه إذا منع الماء مدة وجب العطش . وإنه إذا دام العطش وجب الموت . وليس فى شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية ، والحسنة ماحية للسيئة ، كما خلق الماء مزيلاً للعطش ، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة . فلا واجب على الله تعالى . ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة . فإن قلت : فما من تائب إلا وهو شاك فى قبول توبته والشارب للماء لا يشك فى زوال عطشه ، فلم يشك فيه .

فأقول : شكه فى القبول كشكه فى وجود شرائط الصحة . فإن للتوبة أركاناً وشروطاً دقيقة كما سيأتى ، وليس يتحقق وجود جميع شروطها ، كالذى يشك فى دواء شربه للإسهال فى أنه هل يسهل ، وذلك لشكه فى حصول شروط الإسهال فى الدواء ، باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه ، وجودة عقاقيره وأدويته . فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة ، وموجب للشك فى قبولها لا محالة ، على ما سيأتى فى شروطها إن شاء الله تعالى .

الركن الثانى

فيما عنه التوبة وهى الذنوب صغائرها وكبائرها

- بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد .
- بيان ما يتعلق بالعباد ، وما يتعلق بحق الله تعالى .
- بيان كيفية توزع الدرجات والدركات فى الآخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا.
- بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب .

الفصل الأول

بيان أقسام الذنوب
بالإضافة إلى صفات العبد

تمهيد وتهيئة

اعلم أن التوبة ترك الذنب . ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته .

وإذا كانت التوبة واجبة ، كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً . فمعرفة الذنوب إذاً واجبة .

والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى ، فى ترك أو فعل .

وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا .

ولكنا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها .

والله الموفق للصواب برحمته .

اعلم أن للإنسان أوصافاً وأخلاقاً كثيرة ، على ما عرف شرحه فى كتا
عجائب القلب وغوائله ولكن تنحصر مثارات الذنوب فى أربع ص

صفات ربوبية ، وصفات شيطانية ، وصفات بهيمية ، وصفات سبعية . وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة ، فاقتضى كل واحد من الأخلاط فى المعجون منه أثراً من الآثار ، كما يقتضى السكر والخل ، والزعفران ، فى السكنجبين آثاراً مختلفة .

فأما ما يقتضى النزوع إلى الصفات الربوبية ، فمثل الكبر ، والفخر ، والجبرية ، وحب المدح ، والثناء ، والعز ، والغنى ، وحب دوام البقاء . وطلب الاستعلاء على الكافة ، حتى كأنه يريد أن يقول : أنا ربكم الأعلى . وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب ، غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوباً ، وهى المهلكات العظيمة ، التى هى كالأمهات لأكثر المعاصى ، كما استقصيناه فى ربع المهلكات .

الثانية : هى الصفة الشيطانية ، التى منها يتشعب الحسد ، والبغى ، والحيلة ، والخداع ، والأمر بالفساد والمنكر . وفيه يدخل الغش ، والنفاق ، والدعوة إلى البدع والضلال .

الثالثة : الصفة البهيمية ، ومنها يتشعب الشره ، والكلب[٥٨] ، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج . ومنه يتشعب الزنا ، واللواط ، والسرقة وأكل مال الأيتام ، وجمع الحطام لأجل الشهوات .

الرابعة : الصفة السبعية ، ومنها يتشعب الغضب ، والحقد ، والتهجم على الناس بالضرب والشتم ، والقتل ، واستهلاك الأموال . ويتفرع عنها جمل من الذنوب .

وهذه الصفات لها تدريج فى الفطرة ، فالصفة البهيمية هى التى تغلب أولاً ، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً ، ثم إذا اجتمعاً استعملا العقل فى الخداع ، والمكر ، والحيلة ، وهى الصفة الشيطانية ، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية ،

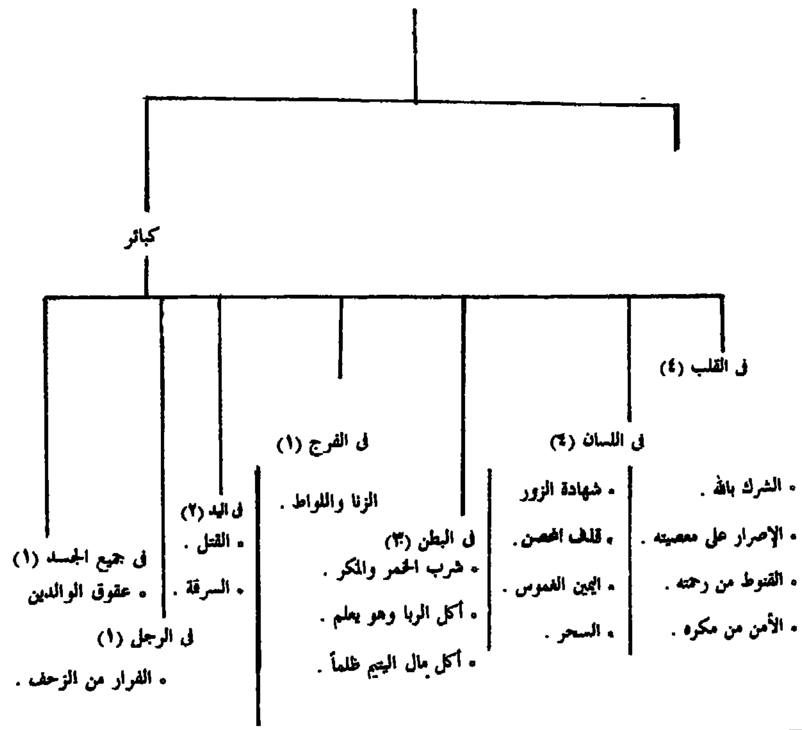
---

(٥٨) الكلب بالتحريك : الحرص والتكالب على الشىء .

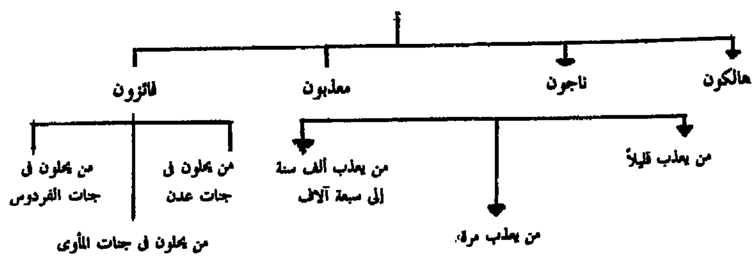
وهى الفخر ، والعز ، والعلو ، وطلب الكبرياء ، وقصد الاستيلاء على جميع الخلق .

فهذه أمهات للذنوب ومنابعها . ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح ، فبعضها فى القلب خاصة كالكفر ، والبدعة ، والنفاق ، وإضمار السوء للناس . وبعضها على العين والسمع . وبعضها على اللسان ، وبعضها على البطن والفرج ، وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن . ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح .

الذنوب التى منها نتوب



أقسام الناس فى الآخرة حسب ذنوبهم



الفصل الثانى

بيان ما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى، وإلى ما يتعلق بحقوق العبادة فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة، والصوم، والواجبات الخاصة به. وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس، وغصبه الأموال، وشتمه الأعراض. وكل متناول من حق الغير فإما نفس، أو طرف، أو مال، أو عرض، أو دين، أو جاه. وتناول الدين بالإغواء، والدعاء إلى البدعة، والترغيب فى المعاصى، وتهيج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف، وما يتعلق بالعباد، فالأمر فيه أغلظ وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركاً، فالعفو فيه أرجى وأقرب. وقد جاء فى الخبر(٥٩) « **الدَّوَاوِينُ ثَلَاثَةٌ : ديوانٌ يُغْفَرُ ودِيَوانٌ لاَ يُتْرَكُ فَالديوانُ الذى يُغفرُ ذُنُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى وَأما الديوان الَّذى لاَ يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ باللهِ تَعَالَى وَأَما الدِّيوانُ الَّذى لا يُتْرَكُ فَمَظَالِمُ الْعِبَادِ** » أى لا بد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها

قسمة ثالثة :

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر. وقد كثر اختلاف الناس فيها. فقال قائلون : لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهى كبيرة وهذا ضعيف إذ قال تعالى ﴿ **إنْ تَجتَنِبوا كبَائِرَ مَاتُنْهَونَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُمْ وَنُدْخلْكُم مُدْخَلاً كَرِيماً** ﴾(٦٠) وقال تعالى ﴿ **الَّذينَ يَجتنبونَ كَبَائرَ الأَثْمِ وَالْفَواحشَ إلاَّ**

---

(٥٩) حديث الدواوين ثلاثة ديوان يغفر ــ الحديث : أحمد والحاكم وصحيحه من حديث ـ ـ صدقة ابن موسى الدقيقى ضعفه ابراهين وغيره ولمشاهد من حديث سلمان ورواه الطبرانى .

(٦٠) النساء : ٣١

اللَّمَمَ ﴾[٦١] وقال ﷺ[٦٢] « **الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجمُعَةُ إِلَى الْجمُعة يُكَفِّرنَ مَا بَيْنَهُنَّ إن اجْتنبت الْكبائِرُ** » وفى لفظ آخر « **كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا الْكَبَائر** » وقد قال ﷺ فيما رواه[٦٣] عبد الله بن عمرو بن العاص « **الْكَبَائرُ الْأَشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الْوَالدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْس وَالْيَمِينُ الْغَمُوس** » .

تحديد الكبائر من الصغائر

واختلف الصحابة والتابعون فى عدد الكبائر ، من أربع إلى سبع ، إلى تسع ، إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك . فقال ابن مسعود ، هن أربع . وقال ابن عمر : هن سبع . وقال عبد الله بن عمرو . هن تسع . وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر : الكبائر سبع يقول : هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع . وقال مرة . كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره : كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقال بعض السلف . كل ما أوجب عليه الحد فى الدنيا فهو كبيرة . وقيل إنها مبهمة لا يعرف عددها، كليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة . وقال ابن مسعود لما سئل عنها . اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله ﴿ **إنْ تَجتنِبوا كَبَائرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ** ﴾[٦٤] فكل ما نهى الله عنه فى هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب المكى . الكبائر سبع عشرة ، جمعتها من جملة الأخبار[٦٥] . وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر وغيرهم ، أربعة فى القلب ، وهى الشرك

---

(٦١) النجم : ٣ واللمم : صغار الذنوب

(٦٢) حديث الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن إن اجتنبت الكبائر : مسلم من حديث أبى هريرة .

(٦٣) حديث عبد الله بن عمرو الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس ورواه البخارى .

(٦٤) النساء : ٣١

(٦٥) الأخبار الواردة فى الكبائر حكى المصنف عن أبى طالب المكى أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله ، والإصرار =

بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمته ، والأمن من مكره . وأربع فى اللسان ، وهى شهادة الزور ، وقذف المحصن واليمين الغموس ، وهى التى يحق بها باطلاً أو يبطل بها حقاً ، وقيل هى التى يقتطع بها مال امرىء مسلم باطلاً ولو سواكا من أراك وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها فى النار ، والسحر ، وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة .

= على معصيته ، والقنوط من رحمته ، والأمن من مكره ، وشهادة الزور . وقذف المحصن واليمين الغموس والسحر ، وشرب الخمر ، والمسكر ، وأكل مال اليتيم ظُلْماً وأكل الربا ، والزنا واللواط ، والقتل ، والسرقة والفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين ، انتهى وسأذكر ما ورد منها مرفوعاً وقد تقدم أربعة منها فى حديث عبد الله بن عمرو ، وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله ، وما هى قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات ، ولهما من حديث أبى بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، أو قال قول الزور لهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : قال قول الزور ، أو قال شهادة الزور ، ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله ﷺ أى الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت ثم أى ؟ قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أى ؟ قل أن تزانى حليلة جارك وللطبرانى من حديث سلمة بن قيس إنما هى أربع لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا . وفى الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا وفى الأوسط للطبرانى من حديث ابن عباس الخمر أم الفواحش ، وأكبر الكبائر وفيه موقوفاً على عبد الله بن عمرو أعظم الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضعيف وللبزار من حديث ابن عباس بإسناد حسن أن رجلاً قال يارسول الله ما الكبائر قال : الشرك بالله ، والإياس من روح الله ، والقبوط من رحمة الله ، وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ومنع فضل الماء ، ومنع الفحل ، وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائى وغيرهما وله من حديث أبى هريرة الكبائر أولهن الإشراك بالله ، وفيه والانتقال إلى الأعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف وللطبرانى فى الكبير من حديث سهل بن أبى حشمة فى الكبائر والتعرب بعد الهجرة وفيه ابن وله فى الأوسط من حديث أبى سعيد الخدرى الكبائر سبع وفيه والرجوع إلى الاعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلاب الأشعرى ضعفه الدارقطنى وللحاكم من حديث عبيد ابن عمير عن أبيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلال البيت الحرام وللطبرانى من حديث واثلة إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل علىّ ما لم أقل وله أيضاً من حديثه إن من أكبر الكبائر أن ينتفى الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والديه ولأبى داود من حديث سعيد بن زيد من أربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق وفى الصحيحين من =

وثلاث فى البطن ، وهى شرب الخمر والمسكر من كل شراب ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، وأكل الربا وهو يعلم . واثنتان فى الفرج ، وهما الزنا واللواط .

واثنتان فى اليدين ، وهما القتل والسرقة . وواحدة فى الرجلين ، وهو الفرار من الزحف ، الواحد من اثنين ، والعشرة من العشرين . وواحدة فى جميع الجسد ، وهى عقوق الوالدين ، قال وجملة عقوقهما أن يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما . وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما . وإن يسبه فيضربهما . ويجوعان فلا يطعمها .

هذا ما قاله وهو قريب ، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء ، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه . فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر ، وهى جناية على الأموال ولم يذكر فى كبائر النفوس إلا القتل . فأما فقء العين ، وقطع اليدين ، وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب ، فلم يتعرض له . وضرب اليتيم وتعذيبه ، وقطع أطرافه لا شك فى أنه أكبر من أكل

= حديث ابن عباس أنه ﷺ مر على قبرين فقال إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير وإنه لكبير أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ــ الحديث : ولأحمد فى هذه القصة من حديث أبى بكرة أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس الحديث : ولأبى داود والترمذى من حديث أنس عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها سكت عليه أبو داود واستغربه البخارى والترمذى وروى ابن أبى شيبة فى التوبة من حديث ابن عباس لا صغيرة مع أصرار وفيه أبو شيبة الخراسانى والحديث منكر يعرف به (وأما الموقوفات) فروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الاشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله وروى البيهقى فيه عن ابن عباس قال الكبائر الاشراك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التى حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا والسحر والزنا واليمين الغموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متعمداً وأشياء مما فرضها الله ونقض العهد وقطيعة الرحم وروى ابن أبى الدنيا فى التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصر عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه ورورى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس قوله لا صغيرة مع الاصرار واسناده جيد فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون إلا أن بعضها لا يصح اسناده كما تقدم وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد فى المرفوع وما ورد فى الموقوف وللبيهقى فى الشعب عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر سبع فقال هى إلى سبعين أقرب وروى البيهقى أيضاً فيه عن ابن عباس قال كل ما نهى الله عنه كبيرة والله أعلم .

ماله . كيف وفى الخبر « **مِنَ الْكَبَائِرِ**[٦٦] **السَّبَّتَانِ بِالسَّبَّةِ وَمِنَ الْكَبَائِرِ اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ** » وهذازائدعلى قذف المحصن . وقال[٦٧] أبو سعيد الخدرى وغيره من الصحابة . إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر .

وقالت طائفة كل عَمْدٍ كبيرة ، وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة : وكشف الغطاء عن هذا : أن نظر الناظر فى الد.رقة أهى كبيرة أم لا ، لا يصح ، ما لم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها . كقول القائل : السرقة حرام أم لا ، لا مطمع فى تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أولاً ثم البحث عن وجوده فى السرقة . فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ، ليس له موضوع خاص فى اللغة ولا فى الشرع . وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه ، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه . فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا . وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه صغيرة بالإضافة إلى قتله . نعم للإنسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة . ونعنى بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة . وله أن يطلق على ما أوجب الحد عليه مصيراً إلى أن ما عجل عليه فى الدنيا عقوبة واجبة عظيماً ، وله أن يطلق على ما ورد فى نص الكتاب النهى عنه ، فيقول تخصيصه بالذكر فى القرآن يدل على عظمة ، ثم يكون عظيماً وكبيرة لا محالة بالإضافة . إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها .

---

(٦٦) حديث من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم : عزاه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس لأحمد وأبى داود من حديث سعيد بن زيد والذى عندهما من حديثه من أربى الربا استطالة فى عرض المسلم بغير حق كما تقدم .

(٦٧) حديث أبى سعيد الخدرى وعيره من الصحابة انكم تعملون أعمالاً هى أدق فى عينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر أحمد والبزار بسند صحيح وقال من الموبقات . بدل الكبائر ورواه البخارى من حديثه أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال صحيح الاسناد

فهذه الإطلاقات لا حرج فيها . وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ، ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات . نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى ﴿ **إِنْ تَجتنبوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** ﴾[٦٨] وقول رسول الله ﷺ « **الصَّلَوَاتُ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا الْكَبَائِرَ** » فإن هذا إثبات حكم الكبائر .

تحديد الغزالى فى الفرق بين الصغيرة والكبيرة

والحق فى ذلك أن الذنوب منقسمة فى نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها . وإلى ما يعلم أنها معدودة فى الصغائر ، وإلى ما يشك فيه فلا يدرى حكمه : فالطمع فى معرفة حد حاصر ، أو عدد جامع مانع ، طلب لما لا يمكن . فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله ﷺ ، بأن يقول إنى أردت بالكبائر عشراً ، أو خمساً ، ويفصلها ، فإن لم يرد هذا ، بل ورد فى بعض الألفاظ[٦٩] ثلاث من الكبائر ، وفى بعضها[٧٠] سبع من الكبائر . ثم ورد أن السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر ، وهو خارج عن السبع والثلاث ، علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر . فكيف يطمع فى عدد ما لم يعده الشرع ! وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل ، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس فى طلبها . نعم لنا سبيل كلى يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها

---

(٦٨) النساء : ٣١

(٦٩) حديث ثلاث من الكبائر : الشيخان من حديث أبى بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً ــ الحديث : وقد تقدم .

(٧٠) حديث سبع من الكبائر : طب فى الأوسط من حديث أبى سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وافى الكبير من حديث عبد الله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر ــ الحديث : ثم عدهن سبعا وتقدم عن الصحيحين حديث أبى هريرة اجتنبوا السبع الموبقات .

بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب ونعرف أيضاً أكبر الكبائر . فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته .

وبيانه أيضاً أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً ، أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى ، وسعادة لقائه . وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، وكتبه ورسله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأَنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾[71] أى ليكونوا عبيداً لى . ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية ، ونفسه بالعبودية . ولا بد أن يعرف نفسه وربه . فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء . ولكن لا يتم هذا إلا فى الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه السلام[72] « **الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ** » فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدين ، لأنه وسيلة إليه . والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئآن : النفوس والأموال . فكل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر . ويليه ما يسد باب حياة النفوس ، ويليه ما يسد باب المعايش التى بها حياة النفوس ، فهذه ثلاث مراتب .

فحفظ المعرفة على القلوب ، والحياة على الأبدان ، والأموال على الأشخاص ، ضرورى فى مقصود الشرائع كلها ، وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن يختلف فيها الملل . فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبياً يريد ببعثه إصلاح الخلق فى دينهم ودنياهم ، ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله ، أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال . فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب .

---

(٧١) الذاريات : ٥٦ .

(٧٢) حديث الدنيا مررعة الآخرة : لم أجده بهذا اللفظ مرفوعاً وروى العقيلى فى الضعفاء وأبو بكر بن لال فى مكارم الأحلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت الذار الدنيا لمن تزود منها لآخرته الحديث : واسناده ضعيف .

المرتبة الأولى من الكبائر (الكفر)

الأولى : ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله ، وهو الكفر . فلا كبيرة فوق الكفر . إذا الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل . والوسيلة المقربة له إليه وهو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته ، وبعده بقدر جهله . ويتلو الجهل الذى يسمى كفراً ، الأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمته . فإن هذا أيضاً عين الجهل . فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمنا ، ولا أن يكون آيسا . ويتلو هذه الرتبة البدع كلها ، المتعلقة بذات الله ، وصفاته ، وأفعاله . وبعضها أشد من بعض . وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها ، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه ، وبأفعاله ، وشرائعه ، وبأوامره ، ونواهيه ومراتب ذلك لا تنحصر وهى تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة فى القرآن وإلى ما يعلم أنه لا يدخل ، وإلى ما يشك فيه . وطلب دفع الشك فى القسم المتوسط طمع فى غير مطمع .

المرتبة الثانية من الكبائر (القتل)

ما يتعلق بالنفوس

المرتبة الثانية : النفوس . إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة ، وتحصل المعرفة بالله . فقتل النفس لا محالة من الكبائر ، وإن كان دون الكفر . لأن ذلك يصدم عين المقصود ، وهذا يصدم وسيلة المقصود . إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة ، والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى .

قطع الأطراف

ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف . وكل ما يفضى إلى الهلاك ، حتى الضرب . وبعضها أكبر من بعض .

الزنا واللواط

ويقع فى هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط ، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور فى قضاء الشهوات انقطع النسل ، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود . وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ، ولكن يشوش الانساب . ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التى لا ينتظم العيش إلا بها . بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ، ولا ينتظم أمور البهائم ما لم يتميز الفحل منها بإناث يختص بها عن سائر الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحاً فى أصل شرع قصد به الإصلاح . وينبغى أن يكون الزنا فى الرتبة دون القتل ، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ، ولا يمنع أصله ، ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى التقاتل . وينبغى أن يكون أشد من اللواط ، لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين ، فيكثر وقوعه ، ويعظم أثر الضرر بكثرته .

المرتبة الثالثة من الكبائر
(ما يتعلق بالأموال)

المرتبة الثالثة : الأموال . فإنها معايش الخلق ، فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا ، حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما . بل ينبغى أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس . إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها ، وإن أكلت أمكن تغريمها . فليس يعظم الأمر فيها نعم : إذا جرى تناولها بطريق بعـ... التدارك له ؛ فينبغى أن يكون ذلك من الكبائر وذلك بأربع طرق.

السرقة :

أحدها : الخفية ، وهى السرقة . فإنه إذا لم يطلع عليه غالب ...

أكل مال اليتيم :

الثانى : أكل مال اليتيم . وهذا أيضاً من الخفية . وأعنى به فى حق الولى والقيم ، فإنه مؤتمن فيه ، وليس له خصم سوى اليتيم ، وهو صغير لا يعرفه . فتعظيم الأمر فيه واجب ، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف ، وبخلاف الخيانة فى الوديعة ، فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه .

شهادة الزور :

الثالث : تفويتها بشهادة الزور .

اليمين الغموس :

الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس(٧٣) . فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارك . ولا يجوز أن تختلف الشرائع فى تحريمها أصلاً ، وبعضها أشد من بعض ، وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس .

وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر ؛ وإن لم يوجب الشرع الحد فى بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها ، وعظم فى مصالح الدنيا تأثيرها

أكل الربا :

وأما أكل الربا . فليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضى ، مع الإخلال بشرط وضعه الشرع . ولا يبعد أن تختلف الشرائع فى مثله . وإذا لم يجعل الغصب الذى هو أكل مال الغير بغير رضاه ، وبغير رضا الشرع من الكبائر ، فأكل الربا أكل برضا المالك ، ولكن دون رضا الشرع . وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضاً الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة . والمصير إلى أن أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر . وذلك واقع فى مظنة الشك . وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر ، بل ينبغى أن تختص الكبيرة بما

(٧٣) الغموس : الكاذبة التى تغمس صاحبها فى الإثم ثم فى النار .

لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضرورياً فى الدين .

فيبقى مما ذكره أبو طالب المكى : القذف ، والشرب ، والسحر ، والفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين .

شرب الخمر :

أما الشرب لما يزيل العقل ، فهو جدير بأن بكون من الكبائر . وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضاً . لأن العقل محظوظ ، كما أن النفس محظوظة بل لا خير فى النفس دون العقل . فإزالة العقل من الكبائر . ولكن هذا لا يجرى فى قطرة من الخمر ، فلا شك فى أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة . وإنما هو شربُ ماء نجس . والقطرة وحدها فى محل الشك . وإيجاب الشرع الحد به على تعظيم أمره ، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع . وليس فى قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فإن ثبت إجماع فى أنه كبيرة وجب الاتباع ، وإلا فللتوقف فيه مجال .

القذف :

وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض ، والأعراض دون الأموال فى الريبة . ولتناولها مراتب . وأعظمها التناول بالقذف ، بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، وقد عظم الشرع أمره . وأظن ظناً غالباً أن الصحابة كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة ، فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس ، وهو الذى نريده بالكبيرة الآن . ولكن من حيث أنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع ، فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته . بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنساناً يزنى ، فله أن يشهد ، ويجلد المشهود عليه بمجرد شهادته . فإن لم تقبل شهادته فحده ليس ضرورياً فى مصالح الدنيا ، وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة فى رتبة الحاجات . فإذاً هذا أيضاً يلحق بالكبائر فى حق من عرف حكم الشرع . فأما من ظن أن له أن يشهد وحده ، أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره ، فلا ينبغى أن يجعل فى حقه من الكبائر .

السحر :

وأما السحر ، فإن كان فيه كفر فكبيرة ، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذى يتولد منه من هلاك نفس ، أو مرض ، أو غيره .

الفرار من الزحف وعقوق الوالدين :

وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضاً ينبغى أن يكون من حيث القياس فى محل التوقف . وإذا قطع بأن سب الناس بكل شىء سوى الزنا ، وضربهم ، والظلم لهم بغصب أموالهم ، وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلائهم من أوطانهم ، ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك فى السبع عشرة كبيرة ، وهو أكبر ما قيل فيه ، فالتوقف فى هذا أيضاً غير بعيد ، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر .

فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعنى بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعاً ، وإلى ما ينبغى أن تكفره ، وإلى ما يتوقف فيه والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفى والإثبات ، وبعضه مشكوك فيه ، وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة . وإذا لا مطمع فيه ، فطلب رفع الشك فيه خال .

فإن قلت : فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها . فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده .

فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم فى الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام ، لأن دار التكليف هى دار الدنيا . والكبيرة على الخصوص لا حكم لها فى الدنيا من حيث إنها كبيرة . بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها ، كالسرقة والزنا وغيرهما . وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها . وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر ، فلا يتجرءون على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ

سَيِّئَاتِكُمْ ﴾[٧٤] ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة . كمن يتمكن من امرأة ، ومن مواقعتها ، فيكف نفسه عن الوقاع ، فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع ، أشد تأثيراً فى تنوير قلبه من إقدامه على النظر فى إظلامه . فهذا معنى تكفيره . فإن كان عنيناً ، إو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز ، أو كان قادراً ولكن امتنع لخوف أمر آخر ، فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً وكل من لا يشتهى الخمر بطبعه ، ولو أبيح له لما شربه ، فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التى هى من مقدماته ، كسماع الملاهى والأوتار . نعم : من يشتهى الخمر وسماع الأوتار ، فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ، ويطلقها فى السماع ، فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التى ارتفعت إليه من معصية السماع .

فكل هذه أحكام أخروية ، ويجوز أن يبقى بعضها فى محل الشك ، وتكون من المتشابهات ، فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ، ولم يرد النص بعد ، ولا حد جامع ، بل ورد بألفاظ مختلفات . فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ[٧٥] « **الصَّلَاةُ إِلَى الصَّلَاةِ كَفَّارَةٌ وَرَمَضَانُ إِلَي رَمَضَانَ كَفَّارَةٌ إِلَّا مِنْ ثَلَاث إِشْرَاكٌ بِاللهِ وَتَرْكُ السُّنَّةِ وَنَكْثُ الصَّفْقَةِ** » قيل ما ترك السنة ؟ قيل الخروج عن الجماعة ، ونكث الصفقة أن يبايع رجلاً ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله . فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع ، فيبقى لا محالة مبهماً .

فإن قلت الشهادة لا تقبل إلا ممن يجتنب الكبائر ، والورع عن الصغائر ليس شرطاً فى قبول الشهادة ، وهذا من أحكام الدنيا ، فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر . فلا خلاف فى أن من يسمع الملاهى ، ويلبس الديباج ، ويتختم بخاتم الذهب ، ويشرب فى أوانى الذهب والفضة ، لا تقبل شهادته ، ولم

---

(٧٤) النساء : ٣١ .

(٧٥) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة ــ الحديث : الحاكم من حديث أبى هريرة نحوه وقال صحيح الاسناد .

يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر . وقال الشافعي رضى الله عنه : إذا شرب الحنفى النبيذ حددته ، ولم أرد شهادته . فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ، ولم يرد به الشهادة . فدل على أن الشهادة نفياً وإثباتاً لا تدور على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب تقدح فى العدالة ، إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالباً بضرورة مجارى العادات ، كالغيبة ، والتجسس ، وسوء الظن ، والكذب فى بعض الأقوال ، وسماع الغيبة ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأكل الشبهات ، وسب الولد والغلام ، وضربهما بحكم الغضب زائداً على المصلحة ، وإكرام السلاطين الظلمة ، ومصادقة الفجار ، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين . فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ، ويتجرد لأمور الآخرة ، ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك . ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده ، وبطلت الأحكام . والتيارات . وليس لبس الحرير ، وسماع الملاهى ، واللعب بالنرد ، ومجالسة أهل الشرب فى وقت الشرب ؛ والخلوة بالأجنبيات ، وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل . فإلى مثل هذا المنهاج ينبغى أن ينظر فى قبول الشهادة وردها ، لا إلى الكبيرة والصغيرة .

ثم آحاد هذه الصغائر التى لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر فى رد الشهادة . كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة . وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم . والصغيرة تكبر بالمواظبة ، كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج ، والترنم بالغناء على الدوام وغيره . فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر .

الفصل الثالث

بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا .

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة ، والآخرة من عالم الغيب والملكوت . وأعنى بالدنيا حالتك قبل الموت ، وبالآخرة حالتك بعد الموت . فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الدانى منها دنيا ، والمتأخر آخرة . ونحن الآن نتكلم من الدنيا فى الآخرة فإنا الآن نتكلم فى الدنيا وهو عالم الملك ، وغرضنا شرح الآخرة وهى عالم الملكوت .

ولا يتصور شرح عالم الملكوت فى عالم الملك إلا بضرب الأمثال . ولذلك قال تعالى ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** ﴾[٧٦] وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت . ولذلك قال ﷺ[٧٧] « **النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا** » وما سيكون فى اليقظة لا يتبين لك فى النوم ، إلا الأمثال المحجوبة إلى التعبير ، فكذلك ما سيكون فى يقظة الآخرة لا يتبين فى نوم الدنيا إلا فى كثرة الأمثال ، وأعنى بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير .

ويكفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة . فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال : رأيت كأن فى يدى خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال إنك مؤذن تؤذن فى رمضان قبل طلوع الفجر . قال صدقت . وجاء رجل آخر فقال : رأيت كأنى أصب الزيت فى الزيتون . فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها ، فإنها أمك سبيت فى صغرك ، لأن الزيتون أصل

(٧٦) العنكبوت : ٤٣ .

(٧٧) حديث الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا : لم أجده مرفوعاً وإنما يعزى إلى على بن أبى طالب .

الزيت . فهو يردّ إلى الأصل . فنظر فإذا جاريته كانت أمه ، وقد سبيت فى صغره . وقال له آخر : رأيت كأنى أقلد الدر فى أعناق الخنازير . فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها ، فكان كما قال .

والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال . وإنما نعنى بالمثل أداء المعنى فى صورة إن نظر إلى معناه وجد صادقاً . وإن نظر إلى صورته وجده كاذباً . فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذباً ، فإنه لم يختم به قط . وإن نظر إلى معناه وجد صادقاً ، إذ صدر منه روح الختم ، ومعناه ، وهو المنع الذى يراد الختم له . وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال ، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وقدر عقولهم أنهم فى النوم ، والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل ، فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق . ولذلك قال ﷺ(٧٨) « **قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ** » وهو من المثال الذى لا يعقله إلا العالمون . فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال ، لجهله بالتفسير الذى يسمى تأويلاً ، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة فى النوم تعبيراً ، فيثبت لله تعالى يداً وأصبعاً ، تعالى الله عن قوله علوّاً كبيراً .

وكذلك فى قوله ﷺ(٧٩) « **إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ** » فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة ، فيثبت لله تعالى مثل ذلك تعالى الله عن قوله علوّاً كبيراً .

ومن ههنا زل من زل فى صفات إلٰهية ، حتى فى الكلام ، وجعلوه صوتاً وحرفاً إلى غير ذلك من الصفات ، والقول فيه يطول .

وكذلك قد يرد فى أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد ، بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده كقوله ﷺ(٨٠) « **يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِى**

(٧٨) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن : تقدم .

(٧٩) حديث أن الله خلق آدم على صورته : تقدم .

(٨٠) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح : متفق عليه من حديث أبى سعيد .

صُورَةِ كَبْش أَمْلحَ فَيُذْبَح » فيثور الملحد الأحمق ويكذب ، ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول : يا سبحان الله : الموت عرض ، والكبش جسم ، فكيف ينقلب العرض جسماً هل هذا إلا محال ! ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره فقال ﴿ وَمَا يَعْقِلها إلاَّ الْعَالِمُون ﴾[٨١] ولا يدرى المنسكين أن من قال : رأيت فى منامى أنه جىء بكبش ، وقيل هذا هو الوباء الذى فى البلد ، وذبح ، فقال المعبر : صدقت ، والأمر كما رأيت ، وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط ، لأن المذبوح وقع اليأس منه ، فإذن المعبر صادق فى تصديقه ، وهو صادق فى رؤيته . وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا ، وهو الذى يطلع الأرواح عند النوم على ما فى اللوح المحفوظ ، عرفه بما فى اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن النائم إنما يحتمل المثال . فكان مثاله صادقاً ، وكان معناه صحيحاً .

فالرسل أيضاً يكلمون الناس فى الدنيا ، وهى بالإضافة إلى الآخرة نوم ، فيوصلون المعانى إلى أفهامهم بالأمثلة ، حكمة من الله ، ولطفاً بعباده ، وتيسيراً لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل . فقوله يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح ، مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت ، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة ، وثبوت المعانى فيها بواسطتها . ولذلك عبر القرآن بقوله ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[٨٢] عن نهاية القدرة ، وعبر ﷺ ، بقوله « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْـمٰنِ » عن سرعة التقليب وقد أشرنا إلى حكمة ذلك فى كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ، فلنرجع الآن إلى الغرض .

فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات ، لا يمكن إلا بضرب المثال ، فلتفهم من المثل الذى نضربه معناه لا صورته فنقول : .

---

(٨١) العنكبوت : ٤٣

(٨٢) يس : ٨٢

الناس في الآخرة ينقسمون أصنافاً وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم فى السعادة والشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصر ، كما تفاوتوا فى السعادة الدنيا وشقاوتها . ولا تفارق الآخرة فى هذا المعنى ألبتة . فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له ، وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها ، إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات ، فلا نعجز عن إحصاء الأجناس فنقول :

أقسام الناس فى الآخرة

الناس ينقسمون فى الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين . وناجين وفائزين . ومثاله فى الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم ، فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ، ويخلى بعضهم فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون . فإن كان الملك عادلاً ، لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك ؛ معانداً له فى أصل الدولة . ولا يعذب إلا من قصر فى خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته . ولا يخلى إلا معترفاً له برتبة الملك ، لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه . ولا يخلع إلا على من أبلى عمره فى الخدمة والنصرة ، ثم ينبغى أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم فى الخدمة ، وإهلاك الهالكين إما تحقيقاً بحز الرقبة ، أو تنكيلاً بالمثلة ، بحسب درجاتهم فى المعاندة ، وتعذيب المعذبين فى الخفة ، والشدة ، وطول المدة وقصرها ، واتحاد أنواعها واختلافها ، بحسب درجات تقصيرهم .

فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر . فكذلك فافهم أن الناس فى الآخرة هكذا يتفاوتون . فمن هالك ، ومن معذب مدة ، ومن ناج يحل فى دار السلامة . ومن فائز والفائزون ينقسمون إلى من يحلون فى جنات عدن ، أو جنات المأوى أو جنات الفردوس . والمعذبون

ينقسمون إلى من يعذب قليلاً ، وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة ، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد فى الخبر[٨٣] . وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم . وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصى ، فلنذكر كيفية توزيعها عليها .

رتبة الهالكين :

الرتبة الأولى : وهى رتبة الهالكين . ونعنى بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، إذ الذى قتله الملك فى المثال الذى ضربناه أيس من رضا الملك وإكرامه ، فلا تغفل عن معانى المثل . وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين ، المتجردين للدنيا ، المكذبين بالله ورسله وكتبه . فإن السعادة الأخروية فى القرب من الله والنظر إلى وجهه ، وذلك لا ينال أصلاً إلا بالمعرفة التى يعبر عنها بالإيمان والتصديق . والجاحدون هم المنكرون . والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد ، وهم الذين يكذبون برب العالمين ، وأنبيائه المرسلين ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة ، وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه وبين ما يشتهيه لا محاله . فهو لا محالة يكون مخترقاً نار جهنم بنار الفراق . ولذلك قال العارفون : ليس خوفنا من نار جهنم ، ولا رجاؤنا للحور العين ، وإنما مطلبنا اللقاء ، ومهربنا من الحجاب فقط ، وقالوا : من يعبد الله بعوض فهو لئيم ، كأن يعبده لطلب جنته . أو لخوف ناره بل العارف يعبده لذاته ، فلا يطلب إلا ذاته فقط . فأما الحور ا لعين والفواكه ، فقد لا يشتهيها . وأما النار ، فقد لا يتقيها . إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام . فإن نار الفراق نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة . ونار جهنم

---

(٨٣) حديث أن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة : الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث أبى هريرة بسند ضعيف فى حديث قال فيه وأطولهم مكثاً فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة .

لا شغل لها إلا مع الأجسام ، وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد ، ولذلك قيل :

وفى فؤاد المحب نار جوى أحــر نار الجحيم أبردهــا

ولا ينبغى أن تنكر هذا فى عالم الآخرة ، إذ له نظير مشاهد فى عالم الدنيا ، فقد رؤى من غلب عليه الوجد فغدا على النار ، وعلى أصول القصب الجارحة للقدم ، وهو لا يحس به لفرط غلبة ما فى قلبه . وترى الغضبان يستولى عليه الغضب فى القتال ، فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها فى الحال ، لأن الغضب نار فى القلب . قال رسول الله ﷺ(٨٤) « **الْغَضَبُ قِطْعَةٌ مِنَ النَّار** » واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد ، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه ، فليس الهلاك من النار والسيف ، إلا من حيث إنه يفرق بين جزأين . يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن فى الأجسام . فالذى يفرق بين القلب وبين محبوبه الذى يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاماً من تأليف الأجسام ، فهو أشد إيلاماً إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب . ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ، ويستحقره بالإضافة إلى ألم الجسم . فالصبى لو خير بين ألم الحرمان عن الكرة والصولجان . وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان ، لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلاً ، ولم يعد ذلك ألماً ، وقال . العدو فى الميدان مع الصولجان ، أحب إلىّ من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه . بل من تغلبه شهوة البطن ، لو خير بين الهريسة والحلواء ، وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ، ويفرح به الأصدقاء ، لآثر الهريسة والحلواء .

وهذا كله لفقد المعنى الذى بوجوده يصير الجاه محبوباً ، ووجود المعنى الذى بوجوده يصير الطعام لذيذاً . وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ، ولم تظهر فيه صفات الملائكة التى لا يناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين ، ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب . وكما لا يكون الذوق إلا فى اللسان ،

---

(٨٤) حديث الغضب قطعة من النار : الترمذى من حديث أبى سعيد نحوه وقد تقدم .

والسمع إلا فى الآذان ، فلا تكون هذه الصفة إلا فى القلب . فمن لا قلب له ليس له هذا الحس ، كمن لا سمع له ولا بصر ، ليس له لذة الألحان ، وحسن الصور والألوان . وليس لكل إنسان قلب . ولو كان لما صح قوله تعالى ﴿ **إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ** ﴾(٨٥) فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلساً من القلب . ولست أعنى بالقلب هذا الذى تكتنفه عظام الصدر ، بل أعنى به السر الذى هو من عالم الامر . وهو اللحم الذى هو من عالم الخلق عرشه ، والصدر كرسيه ، وسائر الأعضاء عالمه ومملكته ولله الخلق والأمر جميعاً . ولكن ذلك السر الذى قال الله تعالى فيه ﴿ **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** ﴾(٨٦) هو الأمير والملك : لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيباً ، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التى إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه .

وعند ذلك يشم العبد مبادىء روائح المعنى المطوى تحت قوله ﷺ « **إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ** » ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه ، وإلى المتعسفين فى طريق تأويله وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين فى التأويل لأن الرحمة على قدر المصيبة ، ومصيبة أولئك أكثر ، وإن اشتركوا فى مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر . فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وهى حكمته يختص بها من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً .

ولنعد إلى الغرض ، فقد أرخينا الطول وطولنا النفس ، فى أمر هو أعلى من علوم المعاملات التى نقصدها فى هذا الكتاب . فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله ورسوله ﷺ لا تدخل تحت الحصر ، فلذلك لم نوردها .

الرتبة الثانية : رتبة المعذبين . وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ، ولكن قصر فى الوفاء ، فإن رأس الإيمان هو التوحيد ، وهو أن لا يعبد إلا الله . ومن

---

(٨٥) ق : ٣٧

(٨٦) الإسراء : ٨٥

تبع هواه فقد اتخذ إلهه ، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة . بل معنى قولك لا إله إلا الله ، معنى قوله تعالى ﴿ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[٨٧] وهو أن تذَرَ بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى ﴿ الَّذِين قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾[٨٨] ولما كان الصراط المستقيم الذى لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، مثل الصراط الموصوف فى الآخرة ، فلا ينفك بشرٌ عن ميل عن الاستقامة ولو فى أمر يسير ، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو فى فعل قليل ، وذلك قادح فى كمال التوحيد ، بقدر ميله عن الصراط المستقيم . لذلك يقتضى لا محالة نقصاناً فى درجات القرب . ومع كل نقصان ناران : نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ، ونار جهنم كما وصفها القرآن . فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته ، وتفاوته بحسب طول المدة ، إنما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضعفه ، والثانى كثرة اتباع الهوى وقلته .

وإذ لا يخلو بشر فى غالب الأمر عن واحد من الأمرين ، قال الله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاوَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّك حَتْماً مَقْضِيّاً ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فيها جِثِيّاً ﴾[٨٩] ولذلك قال الخائفون من السلف . إنما خوفنا لأنا تيقنا أنا على النار واردون ، وشككنا فى النجاة . ولما روى الحسن الخبر الوارد[٩٠] فيمن يخرج من النار بعد ألف عام . وأنه ينادى يا حنان يا منان . قال الحسن : يا ليتنى كنت ذلك الرجل .

واعلم أن فى الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة ، وأن الاختلاف فى المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة ، حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ، ولا يكون له فيها لبث . وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة ، من اليوم ، والأسبوع ، والشهر ، وسائر المدد .

---

(٨٧) الأنعام : ٩١ (٨٨) فصلت : ٣٠ (٨٩) مريم : ٧١ ، ٧٢

(٩٠) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى ياحنان يامنان : أحمد وابو يعلى من رواية أبى ظلال القسملى عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون

وإن الاختلاف بالشدة لا نهاية لأعلاه ، وأدناه التعذيب بالمناقشة فى الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين فى الأعمال بالمناقشة فى الحساب ؛ ثم يعفو . وقد يضرب بالسياط ، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب .

ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث فى غير المدة والشدة ، وهو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط ، كمن يعذب بأخذ المال ، وقتل الولد واستباحة الحريم ، وتعذيب الأقارب ، والضرب ، وقطع اللسان ، واليد ، والأنف ، والأذن وغيره . فهذه الاختلافات ثابتة فى عذاب الآخرة ، دل عليها قواطع الشرع . وهى بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه ، وكثرة الطاعات وقلتها ، وكثرة السيئات وقلتها .

أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها . وأما كثرته فبكثرتها . وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات . وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان ، وهو المعني بقوله تعالى ﴿ **وَماَ رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ** ﴾[91] وبقوله تعالى ﴿ **الْيَوْمَ تُجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** ﴾[92] وبقوله تعالى ﴿ **وَأَنْ لَيْسَ لِلْأنْسَانِ إلَّا ماَ سَعَى** ﴾[93] وبقوله تعالى ﴿ **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرَّاً يَرَهُ** ﴾[94] إلى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة ، من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال . وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه . وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبيناً ﷺ[95] « **سَبَقَتْ رَحْمَتِى غَضَبِى** » وقال تعالى ﴿ **وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجرْاً عَظِيماً** ﴾[96] فإذاً هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات ، معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً ، ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار .

---

(٩١) فصلت : ٤٦ (٩٢) غافر : ١٢ (٩٣) النجم : ٣٩ (٩٤) الزلزلة : ٧ ، ٨

(٩٥) حديث سبقت رحمتى غضبى : مسلم من حديث أبى هريرة .

(٩٦) النساء : ٤٠

فنقول كل من أحكم أصل الإيمان ، واجتنب جميع الكبائر ، وأحسن جميع الفرائض ، أعنى الأركان الخمسة ، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصرّ عليها ، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة فى الحساب فقط . فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته . إذ ورد فى الأخبار أن الصلوات الخمس ، والجمعة وصوم رمضان ، كفارات لما بينهن . وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصغائر . وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب . وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغى أن يكون بعد ظهور الرجحان فى الميزان ، وبعد الفراغ من الحساب ، فى عيشة راضية .. نعم : التحاقه بأصحاب اليمين ، وبالمقربين ، ونزوله فى جنات عدن ، أو فى الفردوس الأعلى ، فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان : تقليدى كإيمان العوام ، يصدقون بما يستمعون ويستمرون عليه ، وإيمان كشفى يحصل بانشراح الصدر بنور الله ، حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره ، إذ ليس فى الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله . فهذا الصنف هم المقربون النازلون فى الفردوس الأعلى ، وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى ، وهم أيضاً على أصناف : فمنهم السابقون ، ومنهم من دونهم . وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى : ودرجات العارفين فى المعرفة بالله تعالى لا تنحصر ، إذ الإحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة ، وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق ، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم ، وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى فى الأزل . فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازله فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم .

وأما المؤمن إيماناً تقليدياً من أصحاب اليمين . ودرجته دون درجة المقربين . وهم أيضاً على درجات : فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقربين هذا حال من اجتنب كل الكبائر ، وأدى الفرائض كلها . أعنى الأركان الخمسة ، التى هى النطق بكلمة الشهادة باللسان ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج .

فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر ، أو أهمل بعض أركان الاسلام . فإن تاب

توبة نصوحاً قبل قرب الأجل، التحق بمن لم يرتكب. لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كالذى لم يتوسخ أصلاً.

وإن مات قبل التوبة، فهذا أمر مخطر عند الموت، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه، فيختم له بسوء الخاتمة، لا سيما إذا كان إيمانه تقليدياً، فإن التقليد وإن كان جزماً فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال. والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة.. كلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان، إلا أن يعفو الله، عذاباً على عذاب المناقشة فى الحساب. وتكون كثرة العقاب من حيث المدة، بحسب كثرة مدة الإصرار. ومن حيث الشدة، بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع، بحسب اختلاف أصناف السيئات. وعند انقضاء مدة العذاب، ينزل البله المقلدون فى درجات أصحاب اليمين، والعارفون المستبصرون فى أعلى عليين. ففى الخبر[٩٧] «**آخِرُ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ يُعْطَى مِثْلَ الدُّنْيَا كُلِّهَا عَشْرَةَ أَضْعَافٍ**» فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين، أو عشرة بعشرين، فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال. بل هذا كقول القائل: أخذ منه جملاً وأعطاه عشرة أمثاله، وكان الجمل يساوى عشرة دنانير، فأعطاه مائة دينار. فإن لم يفهم من المثل إلا المثل فى الوزن والثقل، فلا تكون مائة دينار لو وضعت فى كفة الميزان، والجمل فى الكفة الأخرى، عشر عشيره. بل هو موازنة معانى الأجسام وأرواحها، دون أشخاصها وهياكلها، فإن الجمل لا يقصد لثقله، وطوله وعرضه، ومساحته، بل لماليته. فروحه المالية، وجسمه اللحم والدم، ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية، لا بالموازنة الجسمانية. وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب أو الفضة. بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال، وقيمتها مائة دينار، وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقاً. ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون. فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر، بل بفطنة أخرى وراء البصر. فلذلك يكذب به

---

(٩٧) حديث إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف: متفق عليه من حديث ابن مسعود.

الصبى ، بل القروى والبدوى ، ويقول ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ووزن الجمل ألف ألف مثقال ، فقد كذب فى قوله إنى أعطيته عشرة أمثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبى ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال ، وأن يحصل فى قلبه النور الذى يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال ، فعند ذلك ينكشف له الصدق . والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله ﷺ فى هذه الموازنة إذ يقول ﷺ(٩٨) « **اَلْجنَّةُ فِى السَّمٰواتِ** » كما ورد فى الأخبار ، والسموات من الدنيا ، فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا فى الدنيا ! وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبى تلك الموازنة . وكذلك تفهيم البدوى .

وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوى والقروى فى تفهيم تلك الموازنة ، فالعارف مرحوم إذا بلى بالبليد الأبلة فى تفهيم هذه الموازنة . ولذلك قال ﷺ(٩٩) « **ارْحَمُوا ثَلاثَة عَالِماً بَيْنَ الْجُهَّالِ وَغَنِىَّ قَوْمٍ افْتَقَر وَعَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ** » والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم ، وامتحان ، وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلى ، وهو المعنى بقوله عليه السلام(١٠٠) « **الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْأَمْثَلِ فَالْأَمْثَلِ** » .

فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام ، وهو الذى ينزل بالبدن ، فإن بلاء نوح عليه السلام أيضاً من البلاء العظيم ، إذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فراراً ، ولذلك لما تأذى رسول الله ﷺ بكلام بعض الناس

---

(٩٨) حديث كون الجنة فى السموات : خ من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث فيه فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الحنة وفوقه عرش الرحمن .

(٩٩) حديث ارحموا ثلاثة عالماً بين الجهال ــ الحديث : ابن حبان فى الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه أبو البحترى واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين .

(١٠٠) حديث البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل : الترمذى وصححه النسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث سعد بن أبى وقاص وقال قلت يا رسول الله أى الناس أشد بلاء فذكره دون ذكر الأولياء وللطبرانى من حديث فاطمة أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ــ الحديث

قال[101] «**رَحِمَ اللهُ أخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَر**» فإذاً لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاحدين، ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين. ولذلك قَلَّمَا ... الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء، بالإخراج من البلاد، والسعاية بهم إلى السلاطين، والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين. وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين.

فإذا عرفت هذه الدقائق، فآمن بقوله عليه السلام إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات، وإياك أن تقتصر بتصديك على ما يدركه كالبصر والحواس فقط، فتكون حماراً بِرِجْلين، لأن الحمار يشاركك فى الحواس الخمس، وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلٰهى، عرض على السموات، والأرض، والجبال، فأبين أن يحملنه وأشفقن منه، فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس، لا يصادف إلا فى عالم ذلك السر الذى فارقت به الحمار وسائر البهائم. فمن ذهل عن ذلك، وعطله وأهمله، وقنع بدرجة البهائم، ولم يجاور المحسوسات فهو الذى أهلك نفسه بتعطيلها، ونسيها بالإعراض عنها، فلا تكونوا كالذين نسوا الله، فأنساهم أنفسهم: فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسى الله إذ ليس ذات الله مدركاً فى هذا العالم بالحواس الخمس. وكل من نسى الله أنساه الله لا محالة نفسه، ونزل إلى رتبة البهائم، وترك الترقى إلى الأفق الأعلى، وخان فى الأمانة التى أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافراً لأنعمه ومتعرضاً لنقمته. إلا أنه أسوأ حالاً من البهيمة، فإن البهيمة تتخلص بالموت وأما هذا فعنده أمانه سترجع لا محالة إلى مودعها، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها: وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة، وإنما هبطت إلى هذا القالب الفانى وغربت فيه، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها. وتعود إلى بارئها وخالقها، إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية، والمظلمة أيضاً راجعة إلى الحضرة، إذ المرجع

---

(١٠١) حديث رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر: البخارى من حديث ابن مسعود.

والمصير للكل إليه ، إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين . ولذلك قال تعالى ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ** ﴾[١٠٢] فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم معكوسون ، قد انقلبت وجوهم إلى أقفيتهم وانتكست رءوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل ، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ، ولم يهده طريقه ، فنعوذ بالله من الضلال ، والنزول إلى منازل الجهال .

فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ، ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر . ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله ، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة ، فلا ينفع إلا فى عالم الملك ، فيدفع السيف عن رقبته ، وأيدى الغانمين عن ماله . ومدة الرقبة والمال مدة الحياة . فحيث لا تبقى رقبة ولا مال ، لا ينفع القول باللسان . وإنما ينفع الصدق فى التوحيد . وكمال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجرى عليه ، إذ لا يرى الوسائط ، وإنما يرى سبب الأسباب كما سيأتى تحقيقه فى التوكل . وهذا التوحيد متفاوت . فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، ومنهم من له مثقال ، ومنهم من له مقدار خردلة وذرة . فمن فى قلبه مثقال دينار من إيمان ، فهو أول من يخرج من النار . وفى الخبر يقال[١٠٣] « **أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ** » وآخر من يخرج من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان . وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة . والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل ، كما ذكرنا فى الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود . وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد . فديوان العباد هو الديوان الذى لا يترك . فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها . ففى الأثر أن العبد ليوقف بين يدى الله تعالى ، وله من الحسنات أمثال الجبال ، لو سلمت له لكان من أهل الجنة ، فيقوم أصحاب المظالم ، فيكون قد سب عرض

(١٠٢) السجدة : ١٢

(١٠٣) حديث أخرجوا من النار فى قلبه مثقال دينار من إيمان ـــ الحديث تقدم

هذا ، وأخذ مال هذا ، وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة ، فتقول الملائكة : يا ربنا هذا قد فنيت حسناته ، وبقى طالبون كثير . فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتكم على سيئاته ، وصكوا له صكاً إلى النار .

وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص ، فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم ، إذ ينقل إليه عوضاً عما ظلم به . وقد حكى عن ابن الجلاء ، أن بعض إخوانه اغتابه ، ثم أرسل إليه يستحله ، فقال : لا أفعل ليس فى صحيفتى حسنة أفضل منها ، فكيف أمحوها ؟ وقال هو وغيره : ذنوب إخوانى من حسناتى ، أريد أن أزين بها صحيفتى .

فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد فى المعاد فى درجات السعادة والشقاوة . وكل ذلك حكم بظاهر أسباب ، يضاهى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين . فإن ذلك ظن يصيب فى أكثر الأحوال . ولكن قد تتوق إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه . وذلك من أسرار الله تعالى الخفية فى أرواح الأحياء ، وغموض الأسباب التى رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم . إذ ليس فى قوة البشر الوقوف على كنهها ، فكذلك النجاة والفوز فى الآخرة لهما أسباب خفية ، ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها . يعبر عن ذلك السبب الخفى المفضى إلى النجاة بالعفو والرضا ، وعما يفضى إلى الهلاك بالغضب والانتقام . ووراء ذلك سر المشيئة الإلٰهية الأزلية ، التى لا يطلع الخلق عليها . فلذلك يجب علينا أن نجوّز العفو عن العاصى وإن كثرت سيئاته الظاهرة ، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة . فإن الاعتماد على التقوى ، والتقوى فى القلب ، وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه ، فكيف غيره ! ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفى فيه يقتضى العفو ، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى . ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلاً ، ولو لم يكن عدلاً لم يصح قوله تعالى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ

لِلْعَبِيدِ﴾[١٠٤] ولا قوله تعالى ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**﴾[١٠٥] وكل ذلك صحيح ، فليس للإنسان إلا ما سعى وسعيه هو الذى يرى . وكل نفس بما كسبت رهينة . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم ، تحقيقاً لقوله تعالى ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم**﴾[١٠٦] .

وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الغلط فيه ، إذ يرى البعيد قريباً ، والكبير صغيراً . ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها ، وإنما الشأن فى انفتاح بصيرة القلب ، وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَارَأَى**﴾[١٠٧]

الناجون

الرتبة الثالثة : رتبة الناجين . وأعنى بالنجاة السلامة فقط ، دون السعادة والفوز . وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ، ولم يقصروا فيعذبوا . ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار ، والمعتوهين ، والذين لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد ، وعاشوا على البله وعدم المعرفة ، فلم يكن لهم معرفة ، ولا جحود ، ولا طاعة ، ولا معصية ، فلا وسيلة تقربهم ، ولا جناية تبعدهم ، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار ، بل ينزلون فى منزلة بين المنزلتين ، ومقام بين المقامين ، عبر الشرع عنه بالأعراف[١٠٨] وحلول طائفة

(١٠٤) فصلت : ٤٦ (١٠٥) النساء : ٤٠ (١٠٦) الرعد : ١١ (١٠٧) النجم : ١١

(١٠٨) حديث حلول طائفة من الحلق الأعراف : البزار من حديث أبى سعيد الخدرى سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال هم رجال قتلوا فى سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار ـــ الحديث : وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبرانى من رواية أبى معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدنى عن ابيه مختصراً أبو معشر نجيح السندى ضعيف ويحيى بن شبل لا يعرف والحاكم عن حذيفة قال أصحاب الأعراف قوم تجاورت بهم حسناتهم النار وقصرت سيئاتهم عن الجنة ـــ الحديث : وقال صحيح على شرط الشيخين وروى الثعلبى عن ابن عباس قال الأعراف موضع عال فى الصراط عليه العباس وحمزة وعلى وجعفر ـــ الحديث : هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين .

من الخلق فيه معلوم يقيناً من الآيات والأخبار ، ومن أنوار الاعتبار . فأما الحكم على العين ، كالحكم مثلاً بأن الصبيان منهم ، فهذا مظنون وليس بمستيقن والاطلاع عليه تحقيقاً فى عالم النبوة ، ويبعد أن ترتقى إليه رتبة الأولياء والعلماء ، والأخبار فى حق الصبيان أيضاً متعارضة ، حتى قالت عائشة رضى الله عنها(١٠٩) لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة ، فأنكر ذلك رسول الله ﷺ وقال « وَمَايُدْرِيكِ ؟ » فإذا الأشكال والاشتباه أغلب فى هذا المقام .

الرتبة الرابعة : رتبة الفائزين . وهم العارفون دون المقلدين . وهم المقربون السابقون . فإن المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام فى الجنة ، فهو من أصحاب اليمين . وهؤلاء هم المقربون . وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان . والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن ، فليس بعد بيان الله بيان والذى لا يمكن

---

(١٠٩) حديث عائشة أنها قالت لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك وقال ما يدريك رواه مسلم قال المصنف والأخبار فى حق الصبيان متعارضة . قلت روى البخارى من حديث يمرة بن جندب فى رؤيا النبى ﷺ وفيه وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فإبراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل يا رسول الله وأولاد المشريكن قال وأولاد المتركين وللطبرانى من حديثه سألنا رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال هم خدمة أهل الجنة وفيه عباد بن منصور الناجى قاضى البصرة وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان وللنسائى من حديث الأسود بن سريع كنافى غزاة لنا ـــ الحديث : فى قتل الذرية وفيه ألا أن خياركم أبنا المشركين ثم قال لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة ـــ الحديث : واسناده صحيح وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة كل مولود يولد على الفطرة ـــ الحديث : وفى رواية لأحمد ليس مولود يولد الأعلى هذه الملة ولأبى داود فى آخر الحديث فقالوا يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفى الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبى ﷺ عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبرانى من حدىث تابت بن الحارث الأنصارى كانت يهود إذا هلك لهم صبى صغير قالوا هو صديق فقال النبى ﷺ كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله فى بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد ـــ الحديث : وفيه عبد الله بن لهيمة ولأبى داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموؤدة فى النار وله من حديث عائشة قلت يا رسول الله ذرارى المؤمنين فقال مع آبائهم فقلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فذرارى المشركين قال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبرانى من حديث خديجة قلت يا رسول الله أين أطفالى منك قال فى الجنة قلت بلا عمل قال الله بما كانوا عاملين قلت فأين أطفالى قبلك قال فى النار قلت بلا عمل قال لقد علم الله ما كانوا عاملين وإسناده منقطع بين عبد الله ابن الحارث وخديجة وفى الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة فى أولاد المشركين هم من آبائهم وفى رواية هم منهم .

التعبير عنه فى هذا العالم. فهو الذى أجمله قوله تعالى ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾(١٦٠) وقوله عز وجل: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. والعارفون مطلبهم تلك الحالة التى لا يتصور أن يخطر على قلب بشر فى هذا العالم. وأما الحور، والقصور، والفاكهة واللبن، والعسل والخمر، والحلى والأساور، فإنهم لا يحرصون عليها، ولو أعطوها لم يقنعوا بها. ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم، فهى غاية السعادات، ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها: كيف رغبتك فى الجنة؟ فقالت الجار ثم الدار. فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها، بل عن كل شيء سواه، حتى عن أنفسهم. ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه، المستوفى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه، فإنه فى حال الاستغراق غافل عن نفسه، لا يحس بما يصيبه

فى بدنه ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه. ومعناه أنه صار مستغرقاً بغيره، وصارت همومه هما واحداً وهو محبوبه، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه، لا لنفسه ولا غير نفسه. وهذه الحالة هى التى توصل فى الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن تخطر فى هذا العالم على قلب بشر، كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه، إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله، ويعلم قطعاً أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته، فالدنيا حجاب على التحقيق، وبرفعه ينكشف الغطاء، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة، وأن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون.

فهذا القدر كاف فى بيان توزع الدرجات على الحسنات، والله الموفق بلطفه.

---

(١٦٠) السجدة: ١٧

الفصل الرابع

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة . ولذلك قيل لا صغيرة مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار . فكبيرة واحدة تنصرم(١١١) ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك ، كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها . ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر . ولذلك قال رسول الله ﷺ(١١٢) « خَيْرُ الْأَعْمَالِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ » والأشياء تستبان بأضدادها . وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل ، فالكثير المنصرم قليل النفع فى تنوير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره فى إظلام القلب .

إلا أن الكبيرة قلما يتصوَّر الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر فقلما يزنى الزانى بغتة من غير مراودة ومقدمات . وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة.. فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة . ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ، ولم يتفق إليها عود ، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره .

---

(١١١) تنصرم : تنقطع .

(١١٢) حديث خير الأعمال أدومها وإن قل : متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم .

استصغار الذنوب

ومنها أن يستصغر الذنب . فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه ، وكراهيته له . وذلك النفور يمنع من شدة أثره به واستصغار يصدر عن الألف به ، وذلك يوجب شدة الأثر فى القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات . ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه فى الغفلة ، فإن القلب لا يتأثر بما يجرى فى الغفلة . وقد جاء فى الخبر(١١٣) « **الْمُؤْمِنُ يَرَىَ ذَنْبَهُ كَالْجَبَلِ فَوْقَهُ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَالْمُنافِقُ يَرَى ذَنْبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَأَطَارَهُ** » .

وقال بعضهم : الذنب الذى لا يغفر ، قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا . وإنما يعظم الذنب فى قلب المؤمن لعلمه بجلال الله . فإذا نظر إلى عظم من عصى به ، رأى الصغيرة كبيرة . وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه . لا تنظر إلى قلة الهدية ؛ وانظر إلى عظم مهديها . ولا تنظر إلى صغر الخطيئة ، وانظر إلى كبرياء من واجهته بها . وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين . لا صغيرة ، بل كل مخالفة فهى كبيرة وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين . وإنكم لتعملون أعمالاً هى فى أعينكم أدق من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات . إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم ، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر . وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العامى فى أمور لا يتجاوز فى أمثالها عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف .

---

(١١٣) حديث المؤمن يرى دنبه كالجبل فوقه ـــ الحديث : البحارى من رواية الحارث بن سويد قال حدتنا وحديث لله أفرح بتوبة العبد ولم يبين المرفوع من الموقوف وقد رواه البيهقى فى الشعب من هذا الوحه موقوفاً ومرفوعاً .

السرور بالصغيرة

ومنها السرور بالصغيرة ، والفرح والتبجح[١١٤] . واعتداد التمكن من ذلك نعمة . والغفلة عن كونه سبب الشقاوة . فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها فى تسويد قلبه . حتى أن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به ، لشده فرحه بمقارفته[١١٥] إياه . كما يقول . أما رأيتنى كيف مزقت عرضه ؟ ويقول المناظر فى مناظرته أما رأيتنى كيف فضحته ؟ وكيف ذكرت مساويه حتى أخجِلته ؟ وكيف استخففت به ؟ وكيف لبست عليه ؟ ويقول المعامل فى التجارة : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف ؟ وكيف خدعته ؟ وكيف غبنته فى ماله ؟ وكيف استحمقته ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر ، فإن الذنوب مهلكات ، وإذا دفع العبد إليها ، وظفر الشيطان به فى الحمل عليها ، فينبغى أن يكون فى مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه ، وبسبب بعده من الله تعالى . فالمريض الذى يفرح بأن ينكسر إناؤه الذى فيه دواؤه ، حتى يتخلص من ألم شربه ، لا يرجى شفاؤه .

التهاون بستر الله وحلمه

ومنها أن يتهاون بستر الله عليه ، وحلمه عنه ، وإمهاله إياه ، ولا يدرى أنه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً . فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله تعالى به . فيكون ذلك لأمنه من مكر الله ، وجهله بمكامن الغرور بالله ، كما قال تعالى ﴿ **وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾[١١٦] .

---

(١١٤) التبجح : الفخر .

(١١٥) مقارفته الذنوب : مباشرتها وارتكابها .

(١١٦) المجادلة : ٨

إعلان الذنب

ومنها أن يأتى الذنب ويظهره ، بأن يذكره بعد إتيانه . أو يأتيه فى مشهد غيره . فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله[117] عليه ، وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه ، أو أشهده فعله . فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته ، فغلظت به ، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه ، وتهيئة الأسباب له ، صارت جناية رابعة ، وتفاحش الأمر . وفى الخبر[118] « **كُلُّ النَّاسِ مُعَافىً إلَّا الْمُجَاهِرِينَ يَبِيتُ أحَدُهُمْ عَلَى ذَنْبٍ قد سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَيُصْبِحُ فَيَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ وَيَتَحَدَّثُ بِذَنْبِهِ** » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ، ولا يهتك الستر . فالإظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم : لا تذنب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين . ولذلك قال تعالى ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ** ﴾[119] وقال بعض السلف : ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم مَن أن يساعده على معصية ، ثم يهونها عليه .

ومنها أن يكون المذنب عالماً يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم ، وركوبه مراكب الذهب ، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين ، وتردده عليهم ، ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم ، وإطلاق اللسان فى الأعراض وتعديه باللسان فى المناظرة ، وقصده الاستخفاف ، واشتغاله من العلوم بمالا يقصد منه إلا الجاه ، كعلم الجدل والمناظرة . فهذه ذنوب يتبع العالم عليها ، فيموت العالم ويبقى شره

(١١٧) سدل الستر عليه : أرخاه وأرسله .

(١١٨) حديث كل الناس معافى إلا المجاهرين ـــ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ كل أمتى وقد تقدم ..

والمجاهرون : المعلنون للمعصية .

(١١٩) التوبة : ٦٧ .

مستطيراً فى العالم آمادا متطاولة . فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه . وفى الخبر(١٢٠) « **منْ سَنّ سُنَّةً سَيِّئَةً. فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بَهِا لايَنْقُصُ مِنْ أوزْارِهِمْ شَيْئاً** » قال تعالى ﴿ **وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وآثَارَهُمْ** ﴾(١٢١) والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل .

وقال ابن عباس : ويل للعالم من الأتباع ، يزل زلة فيرجع عنها ، ويحملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق . وقال بعضهم . مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها . وفى الإسرائيليات أن عالماً كان، يضل الناس بالبدعة ، ثم أدركته توبة ، فعمل فى الإصلاح دهراً . فأوحى الله تعالى إلى نبيهم . قل له إن ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فأدخلتهم النار ؟ فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر ، فعليهم وظيفتان إحداهما : ترك الذنب ، والأخرى إخفاؤه . وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب ، فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا . فترك التجمل والميل إلى الدنيا ، وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ، ومن الكسوة بالخلق ، فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام ، فيكون له مثل ثوابهم وإن مال إلى التجمل ، مالت طباع من دونه الى التشبه به ، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين ، وجمع الحطام من الحرام . ويكون هو السبب فى جميع ذلك . فحركات العلماء فى طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها ، إما بالربح ، وإما بالخسران : وهذا القدر كاف فى تفاصيل الذنوب التى التوبة توبة عنها .

---

(١٢٠) حديث من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها — الحديث : مسلم من حديث جرير ابن عبد الله وقد تقدم فى اداب الكسب .

(١٢١) يس : ١٢١

الركن الثالث

فى تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

- بيان شروط التوبة ودوامها .
- بيان كيفية تدارك ما مضى من المظالم .
- بيان طريق كل تائب فى رد المظالم .
- بيان آقسام التائبين فى دوام التوبة .
- بيان ما ينبغى أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب : إما عن قصد وشهوة غالبة ، أو عن إلمام بحكم الاتفاق .
- ثمرة التوبة .

الفصـل الأول

بيان شروط التوبة ودوامها

تمهيد :

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً . وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصى حائلاً بينه وبين محبوبه . ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام . ولتمامها علامة ، ولدوامها شروط . فلا بد من بيانها .

أما العلم فالنظر فيه نظر فى سبب التوبة وسيأتى . وأما الندم : فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة ، والحزن ، وانسكاب الدمع ، وطول البكاء والفكر . فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته ، طال عليه مصيبته وبكاؤه . وأى عزيز أعز عليه من نفسه ، وأى عقوبة أشد من النار ، وأى شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصى وأى مخبر أصدق من الله ورسوله ! ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيباً ، أن مرض ولده المريض لا يبرأ ، وأنه سيموت منه ؛ لطال فى الحال حزنه. فليس ولده بأعز من نفسه ، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ، ولا الموت بأشد من النار ، ولا المرض بأدل على الموت من المعاصى على سخط الله تعالى ، والتعرض بها للنار . فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى . فعلامة صحة

الندم رقة القلب ، وغزارة الدمع . وفى الخبر[١٢٢] « **جَالِسُوا التَّوَّابِينَ فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَة** » .

ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب فى قلبه بدلاً عن حلاوتها ، فيستدل بالميل كراهية ، وبالرغبة نفرة . وفى الاسرائيليات أن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه ، وقد سأله قبول توبة عبد ، بعد أن اجتهد سنين فى العبادة ولم ير قبول توبته فقال : وعزتى وجلالى ، لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته ، وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه فى قلبه . فإن قلت فالذنوب هى أعمال مشتهاة بالطبع ، فكيف يجد مرارتها .

فأقول : من تناول عسلاً كان فيه سم ، ولم يدركه بالذوق ، واستلذه ، ثم مرض وطال مرضه والمه ، وتناثر شعره ، وفلجت أعضاؤه[١٢٣] ، فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم ، وهو فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة ، فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فإن قلت لا ، فهو جحد للمشاهدة والضرورة . بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضاً ، لشبهه به : فوجد أن التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل ، وعمله عمل السم . ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان . ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون فلا ترى إلا معرضاً عن الله تعالى ، متهاوناً بالذنوب ، مصراً عليها . فهذا شرط تمام الندم . وينبغى أن يدوم إلى الموت . وينبغى أن يجد هذه المرارة فى جميع الذنوب ، وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل ، كما يجد متناول السم فى العسل النفة من الماء البارد ، مهما علم أن فيه مثل ذلك السم ، إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا ، بل من حيث إنه مخالفة أمر الله تعالى ، وذلك جار فى كل ذنب .

(١٢٢) حديث جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة : لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبى الدنيا فى التوبة قال جالسوا التوابين فإن رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضاً فالموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب وقال أيضاً التائب أسرع دمعة وأرق قلباً .

(١٢٣) أصابها الفالج وهو داء يحدث فى أحد شقى البدن فيبطل إحساسه وحركته (المملى المصنف) .

الفصل الثانى

بيان كيفية تدارك ما فات

وأما القصد الذى ينبعث منه ، وهو إرادة التدارك ، فله تعلق بالحال ، وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له ، وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال وله تعلق بالماضى ، وهو تدارك ما فرط . وبالمستقبل ، وهو دوام الطاعة ، ودوام ترك المعصية إلى الموت . وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضى ، أن يردّ فكره إلى أوّل يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ، ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة ، وشهراً شهراً ، ويوماً يوماً ، ونفساً نفساً . وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها ، وإلى المعاصى ما الذى قارفه منها .

كيفية التوبة من ترك الصلاة أو فسادها

فإن كان قد ترك صلاة ، أو صلاها فى ثوب نجس ، أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية . فيقتضيها عن آخرها . فإن شك فى عدد ما فاته . منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه أداه ، ويقضى الباقى . ولو أن يأخذ فيه بغالب الظن ، ويصل إليه على سبيل التحرى والاجتهاد .

التوبة من ترك الصوم

وأما الصوم ، فإن كان قد تركه فى سفر ولم يقضه ، أو أفطر عمداً ، أو نسى النية بالليل ولم يقض ، فيتعرف مجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد ، ويشتغل بقضائه .

التوبة من ترك الزكاة

وأما الزكاة ؛ فيحسب جميع ماله ، وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ ، فإن الزكاة واجبة فى مال الصبى : فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه فى ذمته . إن أداه لا على وجه يوافق مذهبه ، بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية ، أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى ، فيقضى جميع ذلك ، فإن ذلك لا يجزيه أصلاً وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول . ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفيه الخروج عنه من العلماء .

التوبة من ترك الحج

وأما الحج ، فإن كان قد استطاع فى بعض السنين ولم يتفق له الخروج ، والآن قد أفلس فعليه الخروج . فإن لم يقدر مع الإفلاس ، فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد . فإن لم يكن له كسب ولا مال ، فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به ، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصياً . قال عليه السلام[١٢٤] « **مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إنْ شَاءَ يَهُودِياً وَإنْ شَاءَ نَصْرَانِياً** » والعجز الطارىء بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها .

التوبة من المعاصى

وأما المعاصى ، فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه ، وبصره ولسانه ، وبطنه ، ويده ، ورجله ، وفرجه ، وسائر جوارحه ثم ينظر فى جميع أيامه وساعاته ، ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه ، حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ، ثم ينظر فيها .

---

(١٢٤) حديث من مات ولم يحج فليست إن شاء يهوديا ــ الحديث : تقدم فى الحج .

الفصل الثالث

بيان طريق كل تائب فى رد المظالم

المعاصى التى بين العبد وبين الله

فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد، كنظر إلى غير محرم، وقعود فى مسجد مع الجنابة، ومس مصحف بغير وضوء، واعتقاد بدعة، وشرب خمر وسماع ملاهٍ، وغير ذلك ما لا يتعلق بمظالم العباد، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها. فيأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات، أخذاً من قوله ﷺ(١٢٥) « **اتقِ اللهَ حَيْثُ كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا** » بل من قوله تعالى ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾(١٢٦) فيكفر سماع الملاهى بسماع القرآن وبمجالس الذكر. ويكفر القعود فى المسجد جنباً بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة. ويكفر مس المصحف محدثاً بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه، وكثرة تقبيله، وبأن يكتب مصحفاً ويجعله وقفاً. ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال، وهو أطيب منه وأحب إليه. وعد جميع المعاصى غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة. فإن المرض يعالج بضده. فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية، فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها والمتضادات هى المتناسبات. فلذلك ينبغى أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها

(١٢٥) حديث اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها : الترمذى من حديث أبى ذر وصححه وتقدم أوله فى اداب الكسب وبعضه فى أوائل التوبة وتقدم فى رياضة النفس .

(١٢٦) هود : ١٤١ .

فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة . وهذا التدريج والتحقيق من التلطف فى طريق المحو فالرجاء فيه أصدق ، والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات ، وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً فى المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وأثر اتباع الدنيا فى القلب السرور بها . والحنين إليها . فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له إذا القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم . قال ﷺ[١٢٧] « **مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبٌ لاَ يُكَفِّرها إِلَّا الْهُمُومُ** » وفى لفظ آخر « **إِلَّا الْهَمُّ بِطَلَبِ الْمَعِيشَةِ** » وفى حديث عائشة رضى الله عنها[١٢٨] « **إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ أَعْمَالٌ تُكَفِّرها أَدْخَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْهُمُومَ فَتَكُونُ كَفَّارَةً لِذُنُوبِهِ** » ويقال إن الهم الذى يدخل على القلب والعبد لا يعرفه . هو ظلمة الذنوب والهم بها . وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع . فإن قلت : هم الإنسان غالباً بماله وولده وجاهه ، وهو خطيئة ، فكيف يكون كفارة ؟ .

فاعلم أن الحب له خطيئة ، والحرمان عنه كفارة . ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام ، دخل على يوسف عليه السلام فى السجن ، فقال له : كيف تركت الشيخ الكئيب ؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى . قال فماله عند الله ؟ قال أجر مائة شهيد فإذن الهموم أيضاً مكفرات حقوق الله . فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى .

---

(١٢٧) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم وفى لفظ آخر إلا الهم فى طلب المعيشة : طس وأبو نعيم فى الحلية والخطيب فى التلخيص من حديث أبى هريرة بسند ضعيف وتقدم فى النكاح .

(١٢٨) حديث إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم : تقدم أيضاً فى النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ ابتلاه الله بالحزن .

مظالم العباد

وأما مظالم العباد ففيها أيضاً معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضاً. فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر، وترك مثله فى المستقبل، والإتيان بالحسنات التى هى أضدادها. فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين، وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله. ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء. إذاً العبد مفقود لنفسه، موجود لسيده والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه، فيقابل الإعدام بالإيجاد. وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة فى التكفير والمحو مشهود له فى الشرع، حيث كفر القتل بإعتاق رقبة. ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه، مالم يخرج عن مظالم العباد. ومظالم العباد إما فى النفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو القلوب أعنى به الإيذاء المحض. أما النفوس، فإن جرى عليه قتل خطأ، فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق، إما منه أو من عاقلته. وهو فى عهده ذلك قبل الوصول. وإن كان عمداً موجباً للقصاص فبالقصاص. فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولى الدم، ويحكمه فى روحه، فإن شاء عفا عنه، وإن شاء قتله ولا تسقط عهدته إلا بهذا. ولا يجوز له الإخفاء. وليس هذا كما لو زنى، أو شرب، أو سرق، أو قطع الطريق، أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى، فإنه لا يلزمه فى التوبة أن يفضح نفسه، ويهتك ستره ويلتمس من الوالى استيفاء حق الله تعالى. بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى، ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب. فالعفو فى محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين. فإن رفع أمر هذه إلى الوالى حتى أقام عليه الحد، وقع موقعه، وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله

تعالى ، بدليل ما روى[١٢٩] أن ماعز بن مالك ، أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى قد ظلمت نفسى وزنيت ، وإنى أريد أن تطهرنى . فرده . فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله إنى قد زنيت . فرده الثانية . فلما كان فى الثالثة ، أمر به فحفر له حفرة ، ثم أمر به فرجم . فكان الناس فيه فريقين . فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته . وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته . فقال رسول الله ﷺ « **لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِّمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ** »[١٣٠] وجاءت الغامدية فقالت يارسول الله ، إنى قد زنيت فطهرنى . فردها . فلما كان من الغد قالت يا رسول الله ، لم تردنى ؟ لعلك تريد أن تردنى كما رددت ماعزا . فوالله إنى لحبلى . فقال ﷺ « **أَمَّا الْآنَ فَاذْهَبِي حَتَّى تَضَعِي** » فلما ولدت أتت بالصبى فى خرقة . فقالت هذا قد ولدته . قال « **اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ** » فلما فطمته أتت بالصبى وفى يده كسره خبز ، فقالت يا نبى الله ، قد فطمته : وقد أكل الطعام فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها . فأقبل خالد ابن الوليد بحجر ، فرمى رأسها ، فتنضح الدم على وجهه ، فسبها . فسمع رسول الله ﷺ سبه إياها فقال « **مَهْلاً يَاخَالِدُ فَوَالَّذِى نفسى بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ** » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .

وأما القصاص وحد القذف : فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه . وإن كان المتناول ما لا تناوله بغصب ، أو خيانة ، أو غبن فى معاملة بنوع تلبيس ، كترويج زائف ، أو ستر عيب من المبيع ، أو نقص أجرة أجير ، أو منع أجرته ، فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه ، بل من أول مدة وجوده . فإن ما يجب فى مال الصبى يجب على الصبى إخراجه بعد البلوغ ، إن كان الولى قد

---

(١٢٩) حديث اعتراف ماعز بالزنا ورده ﷺ حتى اعترف أربعاً وقوله لقد تاب توبة ــ الحديث : مسلم من حديث بريدة بن الحصيب .

(١٣٠) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله ﷺ لقد تابت توبة ــ الحديث : مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذى قبله .

قصر فيه ، فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به ، إذ يستوى فى الحقوق المالية الصبى والبالغ . وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أول يوم حياته إلى يوم توبته . قبل أن يحاسب فى القيامة . وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه . فإن حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن ، فليكتبه ، وليكتب آسامى أصحاب المظالم واحداً واحدا ، وليطف فى نواحى العالم وليطالبهم ، وليستحلهم ، أو ليؤد حقوقهم . وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار ، فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ، ولا على طلب ورثتهم . ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه . فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات ، حتى تفيض عنه يوم القيامة ، فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين أرباب المظالم ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه ، فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئآت أرباب المظالم ؛ فيهلك بسيئآت غيره .

فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم . وهذا يوجب استغراق العمر فى الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم . فكيف ذلك مما لا يعرف ، وربما يكون الأجل قريباً فينبغى أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق ، أشد من تشميره الذى كان فى المعاصى فى متسع الأوقات . هذا حكم المظالم الثابتة فى ذمته . أما أمواله الحاضرة . فليرد إلى المالك مايعرف له مالكاً معيناً . وما لا يعرف له مالكاً فعليه أن يتصدق به . فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ، ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله فى كتاب الحلال والحرام . وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوءهم أو يعيبهم فى الغيبة . فيطلب كل من تعرض له بلسانه ، أو آذى قلبه بفعل من أفعاله ، وليستحل واحداً واحداً منهم . ومن مات أو غاب فقد فات أمره ، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات ، لتؤخذ منه عوضاً فى القيامة . وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه ، فذلك كفارته . وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له . فالاستحلال المبهم لا يكفى . وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال ، وادخر ذلك فى القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته ، أو يحمله

ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً ، أن يتعلم ما يجب عليه فى المستقبل . وما يحرم عليه ، حتى يمكنه الاستقامة . وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة ، إلا أن يتوب عن بعض الذنوب ، كالذى يتوب عن الشرب والزنا والغضب مثلاً ، وليست هذه توبة مطلقة . وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لا تصح . وقال قائلون : تصح . ولفظ الصحة فى هذا المقام مجمل . بل نقول لمن قال لا تصح إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً ، بل وجوده كعدمه ، فما أعظم خطأك . فإنا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب ، وقلتها لسبب لقلته . ونقول لمن قال تصح ، إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز ، فهذا أيضاً خطأ . بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر . ولسنا نتكلم فى خفايا أسرار عفو الله .

فإن قال من ذهب إلى أنها لا تصح . إنى أردت به أن التوبة عبارة عن الندَم ، وإنما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية ، لا لكونها سرقة . ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجعه لأجل المعصية ، فإن العلة شاملة لهما ، إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين ، لأن توجعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين ، فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه ، وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا ، فكيف يتوجع على البعض دون البعض ، فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتةً للمحبوب من العبث إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصى دون البعض ، ولو جاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر ، فإذا استحال ذلك من حيث إن المعصية فى الخمرين واحد ، وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصى آلات للمعصية ، والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة ، فإذاً معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة ، وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم ، ولا يتصور الندم على بعض المتماثلات فهو كالمِلْكِ المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الايجاب والقبول نقول إن العقد لا يصح ، لم يترتب عليه الثمرة وهو أى الملك . وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب

ما تركه ، وثمرة الندم تكفير ما سبق فترك السرقة لا يكفر السرقة ، بل الندم عليها . ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصى .

وهو كلام مفهوم واقع ، يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر ، أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر ، فأمر ممكن . لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله ، وأجاب لسخط الله ومقته . والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه . كالذى يجنى على أهل الملك وحرمه . ويجنى على دابته فيكون خائفاً من الجناية على الأهل ، مستحقراً للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعداً عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده فى الشرع . فقد كثر التائبون فى الأعمار الخالية ، ولم يكن أحد منهم معصوماً . فلا تستدعى التوبة العصمة . والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً ، ويحذره السكر تحذيراً أخف منه ، على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلاً ، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر . فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعاً بحكم شهوته ، ندم على أكل العسل دون السكر . الثانى : أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضاً ممكن . لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله . كالذى يتوب عن القتل ، والنهب ، والظلم ومظالم العباد ، لعلمه أن ديوان العباد لا يترك ، وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه . فهذا أيضاً ممكن ، كما فى تفاوت الكبائر والصغائر . لأن الكبائر أيضاً متفاوتة فى أنفسها وفى اعتقاد مرتكبها . ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التى لا تتعلق بالعباد ، كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلاً ، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور ، وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصى وهو لا يدرى . فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف ، يوجب ذلك تركاً فى المستقبل وندماً على الماضى . الثالث : أن يتوب عن صغيرة أو صغائر ، وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة كأن يتوب عن الغيبة ، أو عن

النظر إلى غير المحرم ، أو ما يجرى مجراه ، وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضاً ممكن ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ، ونادم على فعله ندماً إما ضعيفاً وإما قوياً ، ولكن تكون لذة نفسه فى تلك المعصية أقوى من ألم قلبه فى الخوف منها ، لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة ، وأسباب توجب قوة الشهوة ، فيكون الندم موجوداً ، ولكن لا يكون ملياً بتحريك العزم ، ولا قوياً عليه . فإن سلم عن شهوة أقوى منه ، إن لم يعارضه إلا ما هو أضعف ، قهر الخوف الشهوة وغلبها ، وأوجب ذلك ترك المعصية ، وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر ، فلا يقدر على الصبر عنه ، وتكون له ضراوة ما بالغيبة ، وثلب الناس ، والنظر إلى غير المحرم ، وخوفه من الله قد بلغ مبلغاً يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية ، فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك ، بل يقول هذا الفاسق فى نفسه . إن قهرنى الشيطان بواسطة غلبة الشهوة فى بعض المعاصى ، فلا ينبغى أن أخلع العذار وأرخى العنان بالكلية ، بل أجاهده وبعض المعاصى ، فعسانى أغلبه ، فيكون قهرى له فى البعض كفارة لبعض ذنوبى . ولو لم يتصور هذا لما تُصور من الفاسق أن يصلى ويصوم ، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح ، وإن كانت لله فاترك الفسق لله ، فإن أمر الله فيه واحد ، فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى ، ما لم تتقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول . لله تعالى على أمران ، ولى على المخالفة فيها عقوبتان . وأنا ملى فى أحدهما بقهر الشيطان ، عاجز عنه فى الآخر ، فأنا أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتى فيه أن يكفر عنى بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتى . فكيف لا يتصور هذا ، وهو حال كل مسلم ؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ، ولا سبب له إلا هذا . وإذا فهم هذا فهم أن علبة الخوف للشهوة فى بعض الذنوب ممكن وجودها . والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم ، والندم يورث العزم . وقد قال النبى ﷺ « **النَّدَمُ تَوْبَةٌ** » ولم يشترط الندم على كل ذنب . وقال « **التَّائِبُ منَ الذنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْب لَهُ** » ولم يقل التائب من الذنوب كلها.

وبهذه المعانى تبين سقوط قول القائل : إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة ، لأنها متماثلة فى حق الشهوة ، وفى حق التعرض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ ، لتفاوتهما فى اقتضاء السخط . ويتوب عن الكثير دون القليل ، لأن لكثرة الذنوب تأثيراً فى كثرة العقوبة ، فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه ، ويترك بعض شهوته لله تعالى كالمريض الذى حذره الطبيب الفاكهة ، فإنه قد يتناول قليلها ، ولكن لا يستكثر منها ، فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون ما تاب عنه مخالفاً لما بقى عليه . إما فى شدة المعصية وأما فى غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت فى اعتقاد التائب ، تصور اختلاف حاله فى الخوف والندم . فيتصور اختلاف حاله فى الترك . فندمه على ذلك الذنب ، ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب ، وإن لم يكن قد أطاع الله فى جميع الأوامر والنواهي . فإن قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة ؟ فأقول لا . لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله . وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه . ولكن أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارفه ، وثار منه احتراق ، وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها ، فإن أرجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه ، وماحيا عنه سيئته إذ لا خلاف فى أنه لو تاب قبل طريان العنة ، ومات عقيب التوبة ، كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة . وتتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده . فإذاً لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم فى حق العنين هذا المبلغ ، إلا أنه لا يعرفه من نفسه . فإن كل من لا يشتهى شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف . والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه ، فعساه يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله . والحقيقة فى هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحى عن القلب بشيئين : أحدهما حرقة الندم ، والآخر

شدة المجاهدة بالترك فى المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة . ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة ، يجاهد نفسه فى عين تلك الشهوة مرات كثيرة . وذلك مما لايدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً . فإن قلت : إذا فرضنا تائبين ، أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب ، والآخر بقى فى نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها . فايهما أفضل ؟ .

فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه . فقال أحمد بن أبى الحوارى وأصحاب أبى سليمان الدارانى : إن المجاهد أفضل ، لأن مع التوبة فضل الجهاد . وقال علماء البصرة : ذلك الآخر أفضل ، لأنه لو فتر فى توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذى هو فى عرضه الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه أن الذى انقطع نزوع نفسه له حالتان .

إحداهما : أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور فى نفس الشهوة فقط ، فالمجاهدة أفضل من هذا . إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه ، واستيلاء دينه على شهوته ، فهو دليل قاطع على قوة اليقين ، وعلى قوة الدين . وأعنى بقوة الدين قوة الإرادة التى تنبعث بإشارة اليقين ، وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين . فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً . وقول القائل إن هذا أسلم ، إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب ، فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ وهو كقول القائل ، العنين أفضل من الفحل ، لأنه فى أمن من خطر الشهوة والصبى أفضل من البالغ ، لأنه أسلم . والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه ، لأن المفلس لا عدو له ، والملك ربما يُغلب مرة وإن غلب مرات . وهذا كلام رجل سليم القلب ، قاصر النظر على الظواهر ، غير عالم بأن العز فى الأخطار، وأن العلو شرطه اقتحام الأغرار . بل هو كقول القائل : الصياد الذى ليس له فرس ولا كلب ، أفضل فى صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس ، لأنه آمن من أن يجمح به فرسه ،

فتنكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض ، وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه . وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قوياً عالماً بطريق تأديبهما أعلى رتبة أخرى بدرك سعادة الصيد .

الحالة الثانية : أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين ، وصدق المجاهدة السابقة . إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة ، حتى تأدبت بأدب الشرع ، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين . وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها . فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسى لهيجان الشهوة وقمعها . وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد فإن الجهاد ليس مقصوداً لعينه . بل المقصود قطع ضراوة العدو ، حتى لا يستجرك إلى شهواته ، وإن عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين . فإذا قهرته وحصلت المقصود ، فقد ظفرت وما دمت فى المجاهدة ، فأنت بعد فى طلب الظفر . ومثاله كمثال من قهر العدو واسترقه ، بالاضافة إلى من هو مشغول بالجهاد فى صف القتال ، ولا يدرى كيف يسلم . ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس ، فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح ، بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد . ولقد زل فى هذا فريق ، فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ، ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق ، وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماطتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه ، فقال هذا محال فكذب بالشرع ، وسلك سبيل الإباحة ، واسترسل فى اتباع الشهوات . وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك فى كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات . فإن قلت : فما قولك فى تائبين ، أحدهما نسى الذنب ولم يشتغل بالتفكر فية ، والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه ، فأيهما أفضل ؟ .

أيهما أفضل ؟

فاعلم أن هذا أيضاً قد اختلفوا فيه . فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب

ذنبك بين عينيك وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك . وكل واحد من المذهبين عندنا حق ، ولكن بالإضافة إلى حالين . وكلام المتصوفة أبداً يكون قاصراً ، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ، ولا يهمه حال غيره ، فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجد ، حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه ، لا يهمه أمر غيره . إذ طريقه إلى الله نفسه . ومنازلة أحواله . وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم . فالطرق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة فى القرب والبعد ، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ، مع الاشتراك فى أصل الهداية . فأقول : تصور الذنب وذكره والتفجع عليه ، كمال فى حق المبتدىء ، لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه ، فلا تقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق . ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله . فهو بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان . فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق . بل سالك الطريق ينبغى أن لا يعرج على غير السلوك . فإن ظهر له مبادىء الوصول ، وانكشفت له أنوار المعرفة ولوامع الغيب ، استغرقه ذلك ، ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله ، وهو الكمال ، بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز ، طال تعب المسافر فى عبوره مدة ، من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل . فلو جلس على شاطىء النهر بعد عبوره ، يبكى متأسفاً على تخريبه الجسر ، كان هذا مانعاً آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع . نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل ، بأن كان ليلاً فتعذر السلوك ، أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها ، فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ، ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله . فإن حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله ، فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه . وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق ، والمقصد ، والعائق ، وطريق السلوك وقد أشرنا إلى تلويحات منه فى كتاب العلم ، وفى ربع المهلكات . بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر فى

النعيم فى الآخرة لتزيد رغبته . ولكن إن كان شاباً ، فلا ينبغى أن يطيل فكره فى كل ماله نظير فى الدنيا كالحور والقصور . فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته ، فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة . بل ينبغى أن يتفكر فى لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط . فذلك لا نظير له فى الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركاً للشهوة . فالمبتدىء أيضاً قد يستضر به . فيكون النسيان أفضل له عند ذلك .

ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى من بكاء داود ونياحه عليه السلام فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس فى غاية الاعوجاج ، لأنهم قد ينزلون فى أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأممهم ، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم ، فعليهم التلبس بما تنتفع أممهم مشاهدته ، وإن كان ذلك نازلاً عن ذروة مقامهم . فلقد كان فى الشيوخ من لا يشير على مريديه بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها ، وقد كان مستغنياً عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلاً للأمر على المريد . ولذلك قال ﷺ(١٣٢) « **أَمَا إِنِّى لَا أُنْسَى وَلَكِنِّى أُنْسَى لِأُشَرِّعَ** » وفى لفظ « **إِنَّمَا أَسْهُو لِأَسُنَّ** » .

ولا تعجب من هذا ، فإن الأمم فى كنف شفقة الأنبياء كالصبيان فى كنف شفقة الآباء ، وكالمواشى فى كنف الرعاة . أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبى ، كيف ينزل إلى درجة نطق الصبى ، كما قال ﷺ(١٣٣) للحسن « **كِخْ كِخْ** » لما أخذ من تمر الصدقة ووضعها فى فيه . وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول : ارم هذه الثمرة إنها حرام . ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ،

---

(١٣٢) حديث أما إنى لا أنسى ولكن أنسى لأشرع : ذكره مالك بلاغاً بغير اسناد وقال ابن عبد البر لا يوجد فى الموطأ إلا مرسلا لا إسناد له وكذا قال حمزة الكنانى إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنماطى وقد طال بحثى عنه وسؤالى عنه للأئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسنداً .

(١٣٣) حديث أنه قال للحسن كخ كخ لما أخذ تمرة من الصدقة ووضعها فى فيه : البخارى من حديث أبى هريرة وتقدم فى كتاب الحلال والحرام .

رك الفصاحة ونزل إلى لكنته[١٣٤] . بل الذى يعلم شاة أو طائراً ، يصوت به رغاء[١٣٥] أو صفيراً تشبيهاً بالبهيمة والطائر ، تلطفاً فى تعليمه . فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق ، فإنها مزلة أقدام العارفين فضلاً عن الغافلين ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

(١٣٤) اللكنة : العِىّ وثقل اللسان والعُجمة والعجز عن الفصاحة والبيان .

(١٣٥) الرُّغاء : صوت البعير ، والنعام والضبع وقصف الرعد ، وبكاء الصبى الشديد ، والمقصود : الصوت .

الفصل الرابع

أقسام العباد فى دوام التوبة

اعلم أن التائبين فى التوبة على أربع طبقات :

توبة ذى النفس المطمئنة

الطبقة الأولى : أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره . فيتدارك ما فرط[١٣٦] من أمره ، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه ، إلا الزلات التى لا ينفك البشر عنها فى العادات مهما لم يكن فى رتبة النبوة . فهذا هو الاستقامة على التوبة . وصاحبة هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات . واسم هذه التوبة التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة ، التى ترجع إلى ربها راضية مرضية . وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله ﷺ[١٣٧] « **سَبَقَ الْمُفرِّدُون الْمُستَهْترُونَ بِذِكر الله تَعَالَى وَضَعَ الذِّكْرُ عَنهُمْ أوزَارَهُمْ فَوَرَدُوا الْقِيَامَةَ خِفَافاً** » فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أزوار وضعها الذكر عنهم .

وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات ، فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ، ففتر نزاعها ، ولم يشغله عن السلوك صرعها ، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ، ولكنه ملى بمجاهدتها وردها .

---

(١٣٦) فرط سبق والفارط السابق .

(١٣٧) حديث سبق المفردون المستهترون بذكر الله ـــ الحديث : الترمذى من حديث أبى هريرة وحسنه وقد تقدم .

ثم تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة والقلة وباختلاف المدة، وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر. من مختطف يموت قريباً من توبته، يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة، ومن ممهل طال جهاده وصبره، وتمادت استقامته وكثرت حسناته، وحال هذا أعلى وأفضل، إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة، حتى قال بعض العلماء. إنما يكفر الذنب الذى ارتكبه العاصى أن يتمكن منه عشر مرات، مع صدق الشهوة، ثم يصبر عنه، ويكسر شهوته خوفاً من الله تعالى. واشتراط هذا بعيد، وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض. ولكن لا ينبغى للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق، فتهيج الشهوة، وتحضر الأسباب حتى يتمكن، ثم يطمع فى الانكفاف، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره، فيقدم على المعصية، وينقض توبته. بل طريقها الفرار. من ابتداء أسبابه الميسره له، حتى يسد طرقها على نفسه، ويسعى مع ذلك فى كسر شهوته بما يقدر عليه. فبه تسلم توبته فى الابتداء.

توبة ذى النفس اللوامة

الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات، وترك كبار الفواحش كلها، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد وتجريد قصد، ولكن يبتلى بها فى مجارى أحواله. من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها. ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف، وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التى تعرضه لها. وهذه النفس جديرة بأن تكون هى النفس اللوامة، إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة، لا عن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد. وهذه أيضاً رتبة عالية، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى. وهى أغلب أحوال التائبين. لأن الشر معجون بطينة الآدمى قلما ينفك عنه. وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره، حتى يثقل ميزانه، فترجح كفة الحسنات فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات، فذلك فى

غاية البعد . وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى ، إذ قال تعالى ﴿ **الَّذِين يجْتَنِبُونَ كَبَائِر الأثْمِ والْفَوَاحِشَ إلَّا اللَّمَمَ إنَّ رَبَّكَ وَاسعُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾(١٣٨) .

فكل إلمام يقع بصغيرة ، لا عن توطين نفسه عليه ، فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه . قال تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحَشَةً أَوْ ظَلَمُوا أنْفُسهُمْ ذَكَروا الله فَاسْتَغْفَروا لِذُنُوبِهِمْ** ﴾(١٣٩) فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه . وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقول ﷺ ، فيما رواه عنه على كرم الله وجهه(١٤٠) « **خِيَارُكُمْ كُلّ مُفتَّنٍ تَوَّابٍ** » وفى خبر آخر(١٤١) « **الْمُؤْمِنُ كَالسُّنْبُلَةِ يَفيءُ أَحْيَاناً وَيَمِيلُ أَحْيَاناً** » وفى الخبر(١٤٢) « **لَا بُدَّ لِلْمُؤْمِن مِنْ ذَنْبٍ يَأْتِيه الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةَ** » أى الحين بعد الحين .

فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ، ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين . ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين ، كالطبيب الذى يؤيس الصحيح من دوام الصحة ، بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى ، من غير مداومة واستمرار . وكالفقيه الذى يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء ، بفتوره عن التكرار والتعليق فى أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه بل الفقيه فى الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات ، بما يتفق لهم من فترات ومقارفة السيئات المختطفات . قال النبى ﷺ(١٤٣) « **كُلُّ بَنِي آدَمَ خطاءُونَ وَخيْرُ**

---

(١٣٨) النجم : ٣٢ (١٣٩) ١٣٥

(١٤٠) حديث على خياركم كل مفتن تواب : البيهقى فى الشعب بسند ضعيف .

(١٤١) حديث المؤمن كالسنبلة تفيء أحياناً وتميل أحياناً : أبو يعلى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس والطبرانى من حديث عمار بن ياسر والبيهقى فى الشعب من حديث الحسن وكلها ضعيفة وقالوا تقدم بدل تفيء وفى الأمثال للرامهرمزى إسناد جيد لحديث أنس .

(١٤٢) حديث لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة الطبرانى : والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة .

(١٤٣) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون : الترمذى واستغربه الحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال التوابون بدل المستغفرون * قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخارى .

الخطّائِينَ التّوّابونَ الْمستَغْفِرونَ » وقال أيضاً[١٤٤] « الْمُؤْمِنُ وَاهٍ رَاقِعٌ فَخَيْرُهُمْ مَنْ مَاتَ عَلَى رَقْعِهِ » أى واه بالذنوب ، راقع بالتوبة والندم . وقال تعالى ﴿ أولٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾[١٤٥] فما وصفهم بعدم السيئة أصلاً .

توبة ذى النفس المسولة

الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه الشهوة فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة ، لعجزه عن قهر الشهوة . إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة . وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان ، وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها ، وكفاه شرها . هذا أمنيته فى حال قضاء الشهوة . وعند الفراغ يتندم ويقول . ليتنى لم أفعله ، وسأتوب عنه . وأجاهد نفسى فى قهرها . لكنه تسول نفسه ، ويسوف توبته مرة بعد أخرى . ويوماً بعد يوم . فهذه النفس هى التى تسمى النفس المسولة . وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وَآخَرونَ اعْتَرَفُوا بِذنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ﴾[١٤٦] فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو : فعسى الله أن يتوب عليه . وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره ، فربما يختطف قبل التوبة ، ويقع أمره فى المشيئة . فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره ، وامتن عليه بالتوبة . التحق بالسابقين . وإن غلبته شقوته ، وقهرته شهوته ، فيخشى أن يحق عليه فى الخاتمة ما سبق عليه من القول فى الأزل ، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلم ، دل تعذره على أنه سبق له فى الأزل أن يكون من الجاهلين ، فيضعف الرجاء فى حقه . وإذا يسرت له أسباب المواظبة على

---

(١٤٤) حديث المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه : الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقالا فسعيد بدل فخيرهم .

راقع : أى يهى دينه بمعصيته ويرقعه بتوبته من رقعت الثوب إذا رممته .

(١٤٥) القصص : ٥٤ (١٤٦) التوبة : ١٠٢

التحصيل . دل على أنه سبق له فى الأزل أن يكون من جملة العالمين . فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات ؛ بحكم تقدير مسبب الأسباب ، كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية وارتباط حصول فقه الناس، الذى به تستحق المناصب العلية فى الدنيا ، بترك الكسل ، والمواظبة على تفقيه النفس . فكما لا يصلح لمنصب الرياسة ، والقضاء ، والتقدم بالعلم . إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه ، فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ، ولا للقرب من رب العالمين ، إلا قلب سليم صار طاهراً بطول التزكية والتطهير . هكذا سبق فى الأزل بتدبير رب الأرباب. ولذلك قال تعالى **﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾**(١٤٧) فمهما وقع العبد فى ذنب، فصار الذنب نقداً والتوبة نسيئة ، كان هذا من علامات الخذلان . قال ﷺ(١٤٨) « **إنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّة سَبْعِينَ سَنَةً حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ إنَّهُ مِنْ أَهْلِهَا وَلَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إلاَّ شِبْرٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهَلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا** » .

فإذاً الخوف من الخاتمة قبل التوبة . وكل نفس فهو خاتمة ما قبله . إذ يمكن أن يكون الموت متصلاً به ، فليراقب الأنفاس ، وإلا وقع فى المحذور ، ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر .

توبة النفس الأمارة

الطبقة الثانية : أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله . بل ينهمك إنهماك الغافل فى اتباع شهواته . فهذا من جملة المصرين . وهذه النفس هى النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير . ويخاف على هذا سوء

---

(١٤٧) الشمس : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(١٤٨) حديث إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنه سبعين سنة ـــ الحديث : متفق عليه من حديث سهل بن سعدون قوله سبعين سنة ولمسلم من خديث أبى هريرة أن الرجل ليعمل الزمن الطويل يعمل أهل الجنة الحديث ولأحمد من رواية شهر بن حوثب عن أبى هريرة أن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة وشهر يختلف فيه .

الخاتمة ، وأمره فى مشيئة الله . فإن ختم له بالسوء على شقاوة لا آخر لها ، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين . ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا نطلع عليه ، كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان خراباً ليجد كنزاً فيتفق أن يجده ، وان يجلس فى البيت ليجعله لله عالماً بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم . فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار ، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار . وطلبها بمجرد لو جاء مع خراب الأعمال ، كطلب الكنوز فى المواضع الخربة ، وطلب العلوم من تعليم الملائكة . وليت من اجتهد تعلم ، وليت من اتجر استغنى ، وليت من صام وصلى غفر له . فالناس كلهم محرومون إلا العالمون ، والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون ، والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون ؛ والمخلصون على خطر عظيم .

وكما أن من خرب بيته وضيع ماله ، وترك نفسه وعياله جياعاً ، يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض فى بيته الخرب ، يعد عند ذوى البصائر من الحمقى والمغرورين ، وإن كان ما ينتظره غير مستحيل فى قدرة الله تعالى وفضله ، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة ، مصر على الذنوب ، غير سالك سبيل المغفرة ، يعد عند أرباب القلوب من المعتوهين .

والعجب من عقل هذا المعتوه ، وترويجه حماقته فى صيغة حسنة ، إذ يقول : إن الله كريم ، وجنته ليست تضيق على مثلى ، ومعصيتى ليست تضره . ثم تراه يركب البحار ، ويقتحم الأوعار فى طلب الدينار ، وإذا قيل له إن الله كريم ، ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك ، فاجلس فى بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب يستحمق قائل هذا الكلام ويستهزىء به ، ويقول ما هذا الهوس ؟ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وإنما ينال ذلك بالكسب ، هكذا قدره مسبب الأسباب ، وأجرى به سنته ، ولا تبديل لسنة الله . ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن

سنته لا تبديل لها فيهما جميعاً . وأنه قد أخبر إذ قال ﴿ **وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى** ﴾[149] فكيف يعتقد أنه كريم فى الآخرة وليس بكريم فى الدنيا . وكيف يقول . ليس مقتضى الكريم الفتور عن كسب المال ، ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه عن غير جهد فى الآخرة ، وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد فى غالب الأمر فى الدنيا . وينسى قوله تعالى ﴿ **وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ** ﴾[150] .

- فنعوذ بالله من العمى والضلال . فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس ، وانغماس فى ظلمات الجهل . وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلاً تحت قوله تعالى ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً** ﴾[151] أى أبصرنا أنك صدقت إذ قلت ﴿ **وَأَنْ لَيْسَ لِلأَنْسَانِ إِلاَّ مَاسَعَى** ﴾[~] فارجعنا نسعى . وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ، ويحق عليه العذاب : فنعوذ بالله من دواعى الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب .

---

(١٤٩) النجم : ٣٩

(١٥٠) الذاريات : ٢٢

(١٥١) السجدة : ١٢

الفصل الخامس

بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق

اعلم أن الواجب عليه التوبة ، والندم ، والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده ، كما ذكرنا طريقه . فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة ، فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثانى ، وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها ، فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب ، وإما باللسان وإما بالجوارح . ولتكن الحسنة فى محل السيئة ، وفيما يتعلق بأسبابها .

فأما بالقلب ، فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى فى سؤال المغفرة والعفو ، ويتذلل تذلل العبد الآبق ، ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد ، وذلك بنقصان كبره فيما بينهم . فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد . وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين ، والعزم على الطاعات .

وأما اللسان ، فبالاعتراف بالظلم والاستغفار ، فيقول رب ظلمت نفسى وعملت سوءاً فاغفر لى ذنوبى وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار ، كما أوردناه فى كتاب الدعوات والأذكار .

وأما الجوارح ، فبالطاعات ، والصدقات ، وأنواع العبادات . وفى الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجواً . أربعة من

أعمال القلوب ، وهى التوبة او العزم على التوبة ، وحب الإقلاع عن الذنب ، وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له ، وأربعة من أعمال الجوارح وهى أن تصلى عقيب الذنب ركعتين ، ثم تستغفر الله تعالى سبعين مرة ، وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم تتصدق بصدقه وتصرم يوماً . وفى بعض الآثار(١٥٢) : تسبغ الوضوء ، وتدخل المسجد وتصلى ركعتين .

وفى بعض الأخبار(١٥٣) : تصلى أربع ركعات . وفى الخبر(١٥٤) « **إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتْبِعْهَا حسنة تُكَفِّرْهَا السِّرُّ بِالسِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةُ بِالْعَلاَنِيَةِ** » ولذلك قيل : صدقه السر تكفر ذنوب الليل . وصدقه الجهر تكفر ذنوب النهار .

وفى الخبر الصحيح(١٥٥) أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ ، إنى عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس . فاقض على بحكم الله تعالى . فقال ﷺ « **أَوَ مَاصَلَّيْتَ مَعَنَا صَلاَةَ الْغَدَاةِ** » قال بلى . فقال ﷺ « **إِنَّ الْحَسنَاتِ يُذْهِبن السَّيِّئَاتِ** » وهذا يدل على أن ما دون الزنا من معالجة النساء صغيرة . إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله ﷺ « **الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ**

---

(١٥٢) اثنان من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين : أصحاب السنن من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ثم يستغفر الله إلا غفر الله له لفظ أبى داود وهو فى الكبرى للنسائى مرفوعاً وموقوفاً فلعل المصنف عبر بالأثر لإرادة الموقوف فذكرته احتياطاً وإلا فالآثار ليست من شرط كتابى

(١٥٣) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات : ابن مردويه فى التفسير والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبى ﷺ يهوى امرأة ــ الحديث : وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدبة فقام نادماً فأتى النبى ﷺ فذكر له ذلك فقال له النبى ﷺ صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل وأقم الصلاة طرفى النهار الآية واسناده جيد .

(١٥٤) حديث إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسرا والعلانية بالعلانية : البيهقى فى الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبرانى من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلفظ وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة السر بالسر ــ الحديث .

(١٥٥) حديث أن رجلاً قال يارسول الله إنى عالجت امرأة فاصبت منها كل شيء إلا المسيس ــ الحديث : فى نزول إن الحسنات يذهبن السيئات متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ما صليت معنا صلاة الغداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبى أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم ــ الحديث .

إلاَّ الْكَبَائِرَ » .

فعلى الأحوال كلها ، ينبغى أن يحاسب نفسه كل يوم ، ويجمع سيئاته ، و تهد فى دفعها بالحسنات .

فإن قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعاً من غير حل عقدة الإصرار ، وفى الخبر[١٥٦] « **الْمُسْتَغْفِرُ مِنَ الذَّنْبِ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهِ كَالْمُسْتَهْزِىءِ بِآيَاتِ اللهِ** » وكان بعضهم يقول : أستغفر الله من قولى أستغفر الله . وقيل : الاستغفار باللسان توبة الكاذبين . وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير .

استغفار العبد أمان له

فاعلم : أنه قد ورد فى فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ، ذكرناها فى كتاب الأذكار والدعوات ، حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول ﷺ ، فقال تعالى ﴿ **وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾[١٥٧] فكان بعض الصحابة[١٥٨] يقول : كان لنا أمانان ، ذهب أحدهما . وهو كون الرسول فينا ، وبقى الاستغفار معنا . فإن ذهب هلكنا فنقول :

الاستغفار الذى هو توبة الكذابين ، هو الاستغفار بمجرد اللسان ، من غير أن يكون للقلب فيه شركة . كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة . أستغفر الله . وكما يقول إذا سمع صفة النار . نعوذ بالله منها . من غير أن يتأثر به

---

(١٥٦) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله : ابن أبى الدنيا فى التوبة من طريقه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزىء بربه وسنده ضعيف .

(١٥٧) الأنفال : ٣٣

(١٥٨) حديث بعض الصحابة فى قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أحمد من قول أبى موسى الأشعرى ورفعه الترمذى من حديثه أنزل الله على أمانين ـــ الحديث . وضعفه وابن مردويه فى تفسيره من قول ابن عباس .

لبه . وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ، ولا جدوى له . فأما إذا إنضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى ، وابتهاله فى سؤال المغفرة ، عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة ، فهذه حسنة فى نفسها ، فتصلح لأن تدفع بها السيئة . وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة فى فضل الاستغفار . حتى قال ﷺ[159] « **مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَلَوْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً** » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب . وللتوبة والاستغفار درجات . وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها . ولذلك قال سهل . لا بد للعبد فى كل حال من مولاه . فأحسن أحواله أن يرجع إليه كل شيء : فإن عصى قال يارب استر علىّ . فإذا فرغ من المعصية قال يارب تب على . فإذا تاب قال يارب ارزقنى العصمة . وإذا عمل قال يارب تقبل منى .

وسئل أيضاً عن الاستغفار الذى يكفر الذنوب فقال . أول الاستغفار الاستجابة ، ثم الإنابة ، ثم التوبة . فالاستجابة أعمال الجوارح ، والإنابة أعمال القلوب . والتوبة إقباله على مولاه ، بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذى هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر . فعند ذلك يغفر له ، ويكون عنده مأواه ، ثم التنقل إلى الانفراد ، ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم الفكر ثم المعرفة ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم المولاه ثم محادثة السر ، وهو الخلة . ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه ، والذكر قوامه . والرضا زاده ، والتوكل صاحبه . ثم ينظر الله إليه ، فيرفعه إلى العرش ، فيكون مقامه مقام حملة العرش .

وسئل أيضاً عن قوله ﷺ « **التَّائِبُ حَبِيبُ الله** » فقال : إنما يكون حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذكر فى قوله تعالى ﴿ **التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ** ﴾[160] الآية — وقال الحبيب هو الذى لا يدخل فيما يكرهه حبيبه .

---

(١٥٩) حديث ما أصر من استغفر — الحديث : تقدم فى الدعوات .

(١٦٠) التوبة : ١١٢

ثمرة التوبة

والمقصود أن للتوبة ثمرتين . إحداهما تكفير السيئات ، حتى يصير كمن لا ذنب له . والثانية نيل الدرجات ، حتى يصير حبيباً . وللتكفير أيضاً درجات : فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية ، وبعضه تخفيف له . ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة . فالاستغفار بالقلب ، والتدارك بالحسنات ، وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات : فليس يخلو عن الفائدة أصلاً . فلا ينبغى أن تظن أن وجودها كعدمها . بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها ، أن قول الله تعالى ﴿ **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ** ﴾(١٦١) صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح فى الميزان عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر ، لكانت الثانية مثلها ، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات . وذلك بالضرورة محال . بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات . فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وذرات المعاصى فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء ، تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر فى كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول : أى غنى يحصل بخيط ، وما وقع ذلك فى الثياب ؟ ولا تدرى المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً ، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة .

فإذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً . بل أقول الاستغفار باللسان أيضاً حسنة . إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم ، أو فضول كلام . بل هو خير من السكوت عنه . فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه . وإنما يكون نقصاناً بالإضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أبى عثمان المغربى : إن

---

(١٦١) الزلزال : ٧

لسانى فى بعض الأحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبى غافل ، فقال : اشكر الله إذا استعمل جارحة من جوارحك فى الخير ، وعوده الذكر ، ولم يستعمله فى الشر ولم يعوده الفضول . وما ذكره حق . فإن تعوذ الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع ، يدفع جملة من المعاصى . فمن تعود لسانه الاستغفار إذ سمع من غيره كذباً سبق لسانه إلى ما توعد فقال : استغفر الله . ومن تعود الفضول ، سبق لسانه إلى قول : ما أحمقك ، وما أقبح كذبك ! ومن تعود الاستعاذة إذا حُدِّث بظهور مبادىء الشر من شرير ، قال بحكم سبق اللسان . نعوذ بالله ، وإذا تعود الفضول قال : لعنة الله . فيعصى فى إحدى الكلمتين ويسلم فى الأخرى . وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[١٦٢] ومعانى قوله تعالى ﴿ **وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً** ﴾[١٦٣] فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار فى الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول ، هذا تضعيف فى الدنيا لأدنى الطاعات . وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

فإياك وأن تلمح فى الطاعات مجرد الآفات ، فتفتر رغبتك عن العبادات ، فإن هذه مكيدة رَوّجها الشيطان بلعنته على المغرورين ، وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر ، وأهل التفطن للخفايا والسرائر . فأى خير فى ذكرنا باللسان مع غفلة القلب . فانقسم الخلق فى هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات .

أما السابق : فقال صدقت يا ملعون ، ولكن هى كلمة حق أردت بها باطلاً . فلا جرم أعذبك مرتين ، وأرغم أنفك من وجهين ، فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه .

---

(١٦٢) التوبة : ١٢٠

(١٦٣) النساء : ٤٠

وأما الظالم المغرور ، فاستشعر فى نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ، ثم عجز عن الإخلاص بالقلب ، فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر ؛ فأسعف الشيطان ، وتدلى بحبل غروره ، فثبت بينهما المشاركة والموافقة . كما قيل : وافق شن طبقه ، وافقه فاعتنقه .

وأما المقتصد ، فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب فى العمل ، وتفطن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب . ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول ، فاستمر عليه ، وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان فى اعتياد الخير .

فكان السابق كالحائك الذى ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتباً . والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً . والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال : لا أنكر مذمة الحياكة ، ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس . فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير . فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تذم غفلة القلب . فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه . فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضاً . احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد .

فهكذا ينبغى أن تفهم ذم ما يذم ، وحمد ما يحمد ، وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فإن هذه أمور تثبت بالإضافة ، فلا ينبغى أن تؤخذ من غير إضافة . بل ينبغى أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصى . ولذلك قال جعفر الصادق : إن الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث : رضاه فى طاعته ، فلا تحقروا منها شيئاً ، فلعل رضاه فيه . وغضبه فى معاصيه ، فلا تحقروا منها شيئاً ، فلعل غضبه فيه . وخبأ ولايته فى عباده ، فلا تحقروا منهم أحداً ، فلعله ولىّ الله تعالى . وزاد وخبأ إجابته فى دعائه ، فلا تتركوا الدعاء ، فربما كانت الإجابة فيه .

الركن الرابع

فى دواء التوبة ، وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

- تمهيد .
- طلب العلماء أول علاج العاصين وهو الركن الأول .
- الأنواع النافعة فى حل عقدة الإصرار .
- الركن الثانى فى العلاج : الصبر .
- أسباب الوقوع فى الذنوب .
- علاج الأسباب الموجبة للإصرار .

تمهيد

اعلم أن الناس قسمان :

القسم الأول : شاب لا صبوة له ، نشأ على الخير واجتناب الشر ، وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ[١٦٤] « **تَعَجَّبَ رَبُّكَ مِنْ شَابٍ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ** » وهذا عزيز نادر .

والقسم الثانى : هو الذى لا يخلو عن مقارفة الذنوب . ثم هم ينقسمون إلى مُصِرِّين وإلى تائبين . وغرضنا أن نبين العلاج فى حل عقدة الإصرار ، ونذكر الدواء فيه .

فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء . ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء، فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ، ورفعه ، وإبطاله . ولا يبطل الشىء إلا بضده : ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة . ولا يضاد الغفلة إلا العلم ، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة . والغفلة رأس الخطايا . قال تعالى ﴿ **وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ** ﴾[١٦٥] فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يُعْجَنُ من حلاوة العلم ، ومرارة الصبر . وكما يجمع **السكنجبين**[١٦٦] بين حلاوة السكر وحموضة الخل ، ويقصد بكل منهما غرض آخر فى العلاج بمجموعهما ، فيقمع الأسباب

---

(١٦٤) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة : أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة .

. ليست له صبوة : أى ميل إلى هوى .

(١٦٥) النحل : ١٠٨ ، ١٠٩

(١٦٦) خليط من العسل والخل .

المهيجة للصفراء ، فهكذا ينبغى أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار .

فإذاً لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم ، والآخر الصبر . ولا بد من بيانهما .

الفصل الأول

طلب العلماء
أول علاج العاصين والأصل الأول

فإن قلت اينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص ؟. فاعلم أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب . ولكن لكل مرض علم يخصه . كما أن علم الطب نافع فى علاج الأمراض بالجملة ، ولكن يخص كل علة علم مخصوص . فكذلك دواء الإصرار . نتذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ، ليكون أقرب إلى الفهم فنقول :

الإيمان بأصل الشرع

يحتاج المريض إلى التصديق بأمور :

الأول : أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسباباً يتوصل إليها بالاختيار ، على رتبة مسبب الأسباب ، وهذا هو **الإيمان بأصل الطب** . فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ، ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه ، الإيمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة فى الآخرة سبباً هو الطاعة ، وللشقاوة سبباً هو المعصية . وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان .

الوثوق بالرسول ﷺ

الثانى : أنه لا بد أن يعتقد المريض فى طبيب معين أنه عالم بالطب . حاذق فيه ، صادق فيما يعبر عنه ، لا يلبّس ولا يكذب . فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان . ووازنه مما نحن فيه ، العلم بصدق الرسول ﷺ ، والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق ، لا كذب فيه ولا خلف .

الإصغاء إلى وعد الله وتحذيره

الثالث : أنه لا بد أن يصغى إلى الطبيب فيما يحذره من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة ، حتى يغلب عليه الخوف فى ترك الاحتماء فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء ووزانه من الدين الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب فى التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى ، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك ، من غير شك واسترابة[١٦٧] ، حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر ، الذى هو الركن الآخر فى العلاج .

طلب العلم ونشره

الرابع : أن يصغى إلى الطبيب فيما يخص مرضه ، وفيما يلزمه فى نفسه الاحتماء عنه ، ليُعرِّفه أو لا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ، ومأكوله ومشروبه . فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شىء ، ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص ، وعلاج خاص ، ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة ، وارتكاب كل ذنب ، بل لكل مؤمن ذنب

(١٦٧) الاسترابة : الوقوع فى الريبة .

مخصوص ، أو ذنوب مخصوصة . إنما حاجته فى الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ، ثم إلى العلم بافاتها وقدر ضررها ، ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ، ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها . فهذه علوم يختص بها أطباء الدين . وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فالعاصى إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب ، وهو العالم . وإن كان لا يدرى أن ما يرتكبه ذنب ، فعلى العالم أن يعرفه ذلك . وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة ، أو محلة ، أو مسجد ، أو مشهد فيعلم أهله دينهم ، ويميز ما يضرهم عما ينفعهم ، وما يشقيهم عما يسعدهم . ولا ينبغى أن يصبر إلى أن يُسأل عنه . بل ينبغى أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه . فإنهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم ، بل كانوا ينادونهم فى مجامعهم ، ويدورون على أبواب دورهم فى الابتداء ، ويطلبون واحداً واحداً فيرشدونهم ؛ فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم . كما أن الذى ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه ، لا يعرف برصه ما لم يُعرِّفه غيره . وهذا فرض عين على العلماء كافة(١٦٨) .

وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا فى كل قرية وفى كل محلة فقيهاً متديناً ، يعلم الناس دينهم فإن الخلق لا يولدون إلا جهالاً ، فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم فى الأصل والفرع . والدنيا دار المرضى . إذ ليس فى بطن الأرض إلا ميت ، ولا على ظهرها إلا سقيم . ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان . والعلماء أطباء ، والسلاطين قوّام دار المرضى . فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم ، يسلم إلى السلطان ليكف شره ، كما يُسلم الطبيب المريض الذى لا يحتمى ، أو الذى غلب عليه الجنون ، إلى القيّم ليقيده بالسلاسل والأغلال ، ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس .

أكثرية مرض القلوب على مرض الأبدان

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل :

---

(١٦٨) إذا قام به واحد منهم لا يسقط عن الآخرين .

إحداهما : أن المريض به لا يدرى أنه مريض .

والثانية : أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم . بخلاف مرض البدن ، فإن عاقبته موت مشاهد ، تنفر الطباع منه . وما بعد الموت غير مشاهد . وعاقبة الذنوب موت القلب ، وهو غير مشاهد فى هذا العالم ، فقلّت النُّفْرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ؛ فلذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ، ويجتهد فى علاج مرض البدن من غير اتكال .

والثالثة : وهو الداء العضال فقد الطبيب . فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا فى هذه الأَعْصَار[١٦٩] مرضاً شديداً عجزوا عن علاجه ، وصارت لهم سلوة فى عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا إلى إغواء الخلق ، والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضاً . لأن الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء ، فلم يقدروا على تحذير الخلق منه ، استنكافاً من أن يقال لهم .فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ؟ فبهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء ، وانقطع الدواء ، وهلك الخلق لفقد الأطباء . بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء ، فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا ، وإذ لم يُصلحوا لم يُفسدوا . وليتهم سكتوا وما نطقوا . فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم فى مواعظهم إلا ما يرغب العوام ، ويستميل قلوبهم . ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء ، وتغليب أسباب الرجاء ، وذكر دلائل الرحمة ، لأن ذلك ألذ فى الأسماع ، وأخف على الطباع . فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصى ، ومزيد ثقة بفضل الله . ومهما كان الطبيب جاهلاً أو خائناً ، أهلك بالدواء حيث يضعه فى غير موضعه ، فالرجاء والخوف دواءان ، ولكن لشخصين متضادى العلة أما الذى غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية ، وكلف نفسه ما لا تطيق ، وضيق العيش على نفسه بالكلية ، فتكسر بسَوْرة إسرافه فى الخوف بذكر أسباب الرجاء ، ليعود إلى الاعتدال .

---

(١٦٩) جمع عَصر ، وهو الزمن .

وكذلك المصِرُّ على الذنوب ، المشتهى للتوبة ، الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاماً لذنوبه التى سبقت ، يعالج أيضاً بأسباب الرجاء ، حتى يطمعَ فى قبول التوبة فيتوب .

فأما معالجة المغرور المسترسل فى المعاصى بذكر أسباب الرجاء ، فيضاهى معالجة المحرور بالعسل طلباً للشفاء . وذلك من ذأب الجهال والأغنياء . فإذاً فساد الأطباء هى المعضلة الزباء(١٧٠) التى لا تقبل الدواء أصلاً .

طريق الوعظ

فإن قلت : فاذكر الطريق الذى ينبغى أن يسلكه الواعظ فى طريق الوعظ مع الخلق . فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه ..

نعم نشير إلى الأنواع النافعة فى حل عقدة الإصرار ، وحمل الناس على ترك الذنوب . وهى أربعة أنواع .

---

(١٧٠) من الدواهى الشديدة . كما فى القاموس .

الفصـــل الثـــانى

الأنواع النافعة فى حل عقدة الإصرار

ذكر الآيات والأخبار المخوفة

الأول : أن يذكر ما فى القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار . مثل قوله ﷺ : « **مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَ فَجْرُهُ وَلَا لَيْلَةٍ غَابَ شَفَقُهَا إِلَّا وَمَلَكَانِ يَتَجَاوَبَانِ بِأَرْبَعَةِ أَصْوَاتٍ يَقُولُ أَحَدُهُمَا يَالَيْتَ هَذَا الْخَلْقَ لَمْ يُخْلَقُوا وَيَقُولُ الْآخَرُ يَالَيْتَهُمْ إِذْ خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا فَيَقُولُ الْآخَرَ يَالَيْتَهُمْ إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا** » وفى بعض الروايات « **لَيْتَهُمْ تَجَالَسُوا فَتَذَاكَرُوا مَاعَلِمُوا وَيَقُولُ الْآخَرُ يَالَيْتَهُمْ إِذْ لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا عَلِمُوا تَابُوا مِمَّا عَمِلُوا** » .

وقال بعض السلف . إذا أذنب العبد ، أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ستَّ ساعات . فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه . وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف . ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كِسَفاً(١٧٢) فيقول الله تعالى للأرض والسماء : « **كُفا عن عبدى**

(١٧١) حديث ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ــ الحديث : غريب لم أجده هكذا وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف : ان لله ملكاً ينادى فى كل ليلة أبناء الأربعين زرع قدْ دَنَا حصادُه ــ الحديث : وفيه ليت الخلائق لم يخلقــوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا ــ الحديث :

(١٧٢) جمع كسفة وهى القطعة .

وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه . ولو خلقتماه لرحمتماه . ولعله يتوب إلىّ فأغفر له . ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » . فذلك معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾[(١٧٣)] .

وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه[(١٧٤)] « الطَّابِعُ مُعَلَّقٌ بِقَائِمَةِ الْعَرْش فَإِذَا انْتُهِكَتِ الْحُرُمَاتُ وَاسْتُحِلَّتِ الْمَحَارِمُ أَرْسَلَ اللهُ الطَّابِعَ فَيَطْبَعُ عَلَى الْقُلُوبِ بِمَا فِيهَا » وفى حديث مجاهد[(١٧٥)] « الْقَلْبُ مِثْلُ الْكَفِّ الْمَفْتُوحَةِ كُلَّمَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْباً انْقَبَضَتْ أُصْبُعٌ حَتَّى تَنْقَبِضَ الْأَصَابِعُ كُلُّهَا فَيُسَدَّ عَلَى الْقَلْبِ فَذَلِكَ هُوَ الطَّبْعُ » وقال الحسن : إن بين العبد وبين الله حداً من المعاصى معلوماً ، إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه ، فلم يوفقه بعدها لخير .

والأخبار والآثار فى ذم المعاصى ومدح التائبين لا تحصى . فينبغى أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله ﷺ[(١٧٦)] ، فإنه ما خلف ديناراً ولا درهماً ، إنما خلف العلم والحكمة ، وورثه كل عالم بقدر ما أصابه .

---

(١٧٣) فاطر : ٤١ .

(١٧٤) حديث عمر الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فإذا انتهكت الحرمات ـــ الحديث : ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر .

(١٧٥) حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة قلت هكذا قال المصنف فى حديث مجاهد وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد رويناه فى شعب الإيمان للبيهقى من قول حذيفة .

(١٧٦) حديث أنه ﷺ ما خلفت ديناراً ولا درهماً إنما خلف العلم والحكمة : البخارى من حديث عمرو بن الحارث قال ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ولا درهما ولا عبداً ولا أمة ولمسلم من حديث عائشة ما ترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً وفى حديث أبى الدرداء أن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم ـــ الحديث : وقد تقدم فى العلم .

ذكر حكايات ذنوب الأنبياء والأولياء

النوع الثانى : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين ، وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم . فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الخلق .

مثل أحوال آدم ﷺ فى عصيانه ، وما لقيه من الإخراج من الجنة ، حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحُلَلُ(١٧٧) عن جسده ، وبدت عورته ، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه ، فجاءه جبريل عليه السلام ، فأخذ التاج عن رأسه ، وحل الإكليل عن جبينه . ونودى من فوق العرش . اهبطا من جوارى فإنه لا يجاورنى من عصانى . قال فالتفت آدم إلى حواء باكياً وقال : هذا أول شؤم المعصية ، أخرجنا من جوار الحبيب .

وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذى عُبد فى داره أربعين يوماً ، وقيل لأن المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل . وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانتها منه ، فسلب ملكه أربعين يوماً ، فهرب تائهاً على وجهه . فكان يسأل بكفه فلا يطعم . فإذا قال أطعمونى فإنى سليمان بن داود شج ، وطرد ، وضرب ، وحكى أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت فى وجهه . وفى رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه ، إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت ، فلبسه بعد انقضاء الأربعين : أيام العقوبة . قال فجاءت الطيور فعكفت على رأسه ، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله . فاعتذر إليه بعض من كان جَنَى عليه . فقال لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ، ولا أحمدكم فى عذركم الآن . إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه .

(١٧٧) حلل جمع حلّة . وهى الملابس التى يتحلى بها الإنسان ويستتر .

وروى فى الإسرائيليات أن رجلاً تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه ، فراودته نفسه وطالبته بها ، فجاهدها واستعصم . قال فنبأه الله ببركة تقواه ، فكان نبياً فى بنى إسرائيل . وفى قصص موسى عليه السلام ، أنه قال للخضر عليه السلام . بم أطلعك الله على علم الغيب ؟ قال بترك المعاصى لأجل الله تعالى .

وروى أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام ، فنظر إلى قميصه نظرة ، وكان جديداً ، فكأنه أعجبه . قال فوضعته الريح . فقال لمَ فعلت هذا ولم آمرك ؟ قالت : إنما نطيعك إذا أطعت الله .

وروى أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام ، أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال : لا . قال : اقولك لإخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت عليه الذئب ولم ترْجُنى ؟ ولمَ نظرتَ إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له ؟ أو تدرى لم رددته عليك ؟ قال : لا . قال : لأنك رجوتنى وقلت : ﴿ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعاً ﴾[١٧٨] وبما قلت : ﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ولا تَيْأَسُوا ﴾[١٧٩] وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك : ﴿ اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ ﴾[١٨٠] قال الله تعالى : ﴿ فَأَنْسَاهُ الشيطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾[١٨١] . وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر . ولم يرد بها القرآن والأخبار وورود الأسمار ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ، لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم فى الذنوب الصغار ، فكيف يتجاوز عن غيرهم فى الذنوب الكبار ! نعم كانت سعادتهم فى أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة . والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ، ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضاً مما ينبغى أن يكثر جنسه على أسماع المصرين ، فإنه نافع فى تحريك دواعى التوبة .

---

(١٧٨) يوسف : ٨٣
(١٧٩) يوسف : ٨٧
(١٨٠) يوسف : ٤٢
(١٨١) يوسف : ٤٢

ذكر تعجيل عقوبة الذنوب فى الدنيا

النوع الثالث : أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته . فرب عبد يتساهل فى أمر الآخرة ، ويخاف من عقوبة الله فى الدنيا أكثر لفرط جهله . فينبغى أن يخوّف به . فإن الذنوب كلها يتعجل فى الدنيا شؤمها فى غالب الأمر . كما حكى فى قصى داود وسليمان عليهما السلام . حتى أن قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه . وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه . قال ﷺ[١٨٢] « **إِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ** » وقال ابن مسعود . إنى لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام[١٨٣] « **مَنْ قَارَفَ ذَنْباً فَارَقَهُ عَقْلٌ لَا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَداً** » وقال بعض السلف : ليست اللعنة سواداً فى الوجه ، ونقصاً فى المال ، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت فى مثله أو شر منه ، وهو كما قال . لأن اللعنة هى الطرد والإبعاد . فإذا لم يوفق للخير ، ويغفر له الشر فقد أبعد . والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان . وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف ، فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ، ومن مجالسة الصالحين . بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون . وحكي عن بعض العارفين أنه كان يمشى فى الوحل جامعاً ثيابه ، محترزاً زلقة رجله ، حتى زلقت رجله وسقط . فقام وهو يمشى فى وسط الوحل ويبكى ويقول : هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها ، حتى يقع فى ذنب وذنبين ، فعندما يخوض فى الذنوب خوضاً . وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر . ولذلك قال الفضيل : ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان ،

---

(١٨٢) حديث إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه : ابن ماجه والحاكم وصحح اسناده واللفظ له إلا أنه قال الرجل بدل العبد من حديث ثو بان .

(١٨٣) حديث من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً : تقدم .

فذنوبك ورثتك ذلك . وقال بعضهم : إنى لأعرف عقوبة ذنبى فى سوء خلق حمارى . وقال آخر : أعرف العقوبة حتى فى فأر بيتى . وقال بعض صوفية الشام : نظرت إلى غلام نصرانى حسن الوجه . فوقفت أنظر إليه ، فمرّ بى ابن الجلاء الدمشقى ، فأخذ بيدى فاستحييت منه . فقلت يا أبا عبد الله ، سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة ، وهذه الصنعة المحكمة ، كيف خلقت المنار . فغمز يدى وقال : لتجدن عقوبتها بعد حين . قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سليمان الدارانى : الاحتلام عقوبة . وقال : لا يفوت أحداً صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه . وفى الخبر(١٨٤) « **مَا أَنْكَرْتُمْ مِنْ زَمَانِكُمْ فَبِمَا غَيَّرْتُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ** » وفى الخبر(١٨٥) « **يَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنَّ أَدْنَى مَا أَصْنَعُ بِالْعَبْدِ إِذَا آثَرَ شَهْوَتَهُ عَلَى طَاعَتِى أَنْ أَحْرِمَهُ لَذِيذَ مُنَاجَاتِى** » .

وحكى عن أبى عمرو بن علوان فى قصة يطول ذكرها . قال فيها : كنت قائماً ذات يوم أصلى ، فخامر قلبى هوىً طاولته بفكرتى ، حتى تولد منه شهوة الرجال . فوقعت إلى الأرض ، واسود جسدى كله ، فاستترت فى البيت ، فلم أخرج ثلاثة أيام . وكنت أعالج غسله فى الحمام بالصابون ، فلا يزداد إلا سواداً ، حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيد ، وكان قد وجه إلىّ فأشخصنى من الرقة . فلما أتيته قال لى : أما استحييت من الله تعالى ؟ كنت قائماً بين يديه ، فساورت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدى الله تعالى ؟ فلولا أنى دعوت الله لك ، وتبت إليه عنك ، للقيت الله بذلك اللون . قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة . واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه . فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره لينزجر . وإن كان شقياً أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب

(١٨٤) حديث ما أنكرتم من زمانكم فبما أنكرتم من أعمالكم : البيهقى فى الزهد من حديث أبى الدرداء وقال غريب تفرد به هكذا العقيلى وهو عبد الله بن هانى « قلت هو متهم بالكذب قال ابن أبى حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل .

(١٨٥) حديث يقول الله إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتى أن أحرمه لذة مناجاتى : غريب لم أجده .

النار . والأخبار كثيرة فى آفات الذنوب فى الدنيا ، من الفقر ، والمرض وغيره . بل من شؤم الذنب فى الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته . فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ، ويحرم جميل الرزق ، حتى يتضاعف شقاؤه . وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ، ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه وأما المطيع ، فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته ، ويوفق لشكرها . وكل بلية كفارة لذنوبه ، وزيادة فى درجاته .

ذكر حدود الذنوب والنفوس فى الوجوه

النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب ، كالخمر ، والزنا ، والسرقة ، والقتل ، والغيبة ، والكبر ، والحسد . وكل ذلك مما لا يمكن حصره . وذكره مع غير أهله وضع الدواء فى غير موضعه . بل ينبغى أن يكون العالم كالطبيب الحاذق ، فيستدل أولاً بالنبض ، والسَّحْنة(١٨٦) ووجوده الحركات ، على العلل الباطنة . ويشتغل بعلاجها ، فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات ، وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله ﷺ(١٨٧) ، حيث قال له واحد : أوصنى يا رسول الله ولا تكثر علىّ . قال « **لَا تَغْضَبْ** »(١٨٨) وقال له آخر : أوصنى يا رسول الله . فقال عليه السلام : « **عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِمَّا فِي أَيْدِى النَّاسِ فَإِنَّ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْغِنَى وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ وَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنه** » وقال رجل لمحمد بن واسع : أوصنى فقال : أوصيك أن تكون ملكاً فى الدنيا والآخرة . قال وكيف لى بذلك ؟ قال الزم الزهد فى الدنيا . فكأنه ﷺ توسم فى السائل الأول مخايل الغضب فنهاه عنه . وفى السائل الآخر مخايل الطمع فى الناس وطول الأمل . وتخيل محمد بن واسع فى السائل مخايل الحرص على

---

(١٨٦) السحنة : الهيئة واللون وهى بفتحتين آو بفتح فسكون .

(١٨٧) حديث قال رجل أوصنى ولا تكثر على قال لا تغضب : تقدم .

(١٨٨) حديث قال له آخر أوصنى قال عليك باليأس ـــ الحديث : ابن ماجه وقد تقدم .

الدنيا . وقال رجل لمعاذ أوصنى . فقال : كن رحيماً أكن لك بالجنة زعيماً فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة وقال رجل لإبراهيم بن أدهم . أوصنى . فقال : إياك والناس ، وعليك بالناس ، ولا بد من الناس ، فإن الناس هم الناس ، وليس كل الناس بالناس . ذهب الناس ، وبقى الناس ، وما أراهم بالناس ، بل غمسوا فى ماء اليأس . فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة . وأخبر عما كان هو الغالب على حاله فى وقته ، وكان الغالب أذاه بالناس . والكلام على قدر حال السائل ، أولى من أن يكون بحسب حال القائل . وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضى الله عنها أن اكتبى لى كتاباً توصينى فيه ولا تكثرى . فكتبت إليه من عائشة إلى معاوية ، سلام عليك ، أما بعد ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول(١٨٩) : « **مَنِ الْتَمَسَ رِضَا الله بسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ وَمَنِ الْتَمَسَ سَخَطَ اللهِ بِرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ اللهُ إلى النَّاسِ** » والسلام عليك ، فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التى تكون الولاة بصددها ، وهى مراعاة الناس وطلب مرضاتهم . وكتبت إليه مرة أخرى أما بعد ، فاتق الله ، فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً والسلام .

فإذاً على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية ، وتوسم الأحوال اللائقة ، ليكون اشتغاله بالمهم. فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان .

فإن قلت . فإن كان الواعظ يتكلم فى جمع ، أو سأله من لا يدرى باطن حاله أن يعظه ، فكيف يفعل . فاعلم أن طريقه فى ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق فى الحاجة إليه إما على العموم ، وإما على الأكثر . فإن فى علوم

---

(١٨٩) حديث عائشة من التمس رضا الناس يسخط الله وكله الله إلى الناس ـــ الحديث : الترمذى والحام وفى مسند الترمذى من لم يسم .

الشرع أغذية وأدوية ، فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله ما روى أن رجلاً قال لأبى سعيد الخدرى . أوصنى . قال : عليك بتقوى الله عز وجل ، فإنها رأس كل خير . وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام . وعليك بالقرآن فإنه نور لك فى أهل الأرض ، وذكرٌ لك فى أهل السماء . وعليك بالصمت إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن أوصنى . فقال . أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه . يا بنى ، زاحم العلماء بركبتيك ، ولا تجادلهم فيمقتوك ، وخذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضول كسبك لآخرتك ، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا(١٩٠) ، وعلى أعناق الرجال كلاًّ(١٩١) ، وصم صوماً يكسر شهوتك ، ولا تصم صوماً يضر بصلاتك ، فإن الصلاة أفضل من الصوم ، ولا تجالس السفيه ، ولا تخالط ذا الوجهين وقال أيضاً لابنه . يا بنى ، لا تضحك من غير عجب ، ولا تمش فى غير أَرَب(١٩٢) ، ولا تسأل عما لا يعنيك ، ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك ، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت يا بنى ، إن من يَرحم يُرحم ، ومن يَصْمُت يسلم ، ومن يقل الخير يغنم ، ومن يقل الشر يأثم ومن لا يملك لسانه يندم .

وقال رجل لأبى حازم أوصنى . فقال كل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه . وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه .

وقال موسى للخضر عليهما السلام أوصنى ، فقال : كن بساماً ولا تكن غضّابا . وكن نفّاعاً ولا تكن ضرّاراً ، وانزع عن اللجاجة(١٩٣) ، ولا تمش فى غير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، ولا تعير الخطائين بخطاياهم ، وابك على خطيئتك يا بن عمران .

---

(١٩٠) أى عالة على غيرك .

(١٩١) الكل : الضعيف الذى يحمله غيره

(١٩٢) أرَب : مقصد وهدف ومصلحة وحاجة .

(١٩٣) يقال : نزع عن كذا انتهى عنه .

واللجاجة : التمادى فى الخصومة

وقال رجل لمحمد بن كرام أوصنى . فقال : اجتهد فى رضا خالقك بقدر ما تجتهد فى رضا نفسك .

وقال رجل لحامد اللفاف أوصنى . فقال : اجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات . وقال رجل لحامد اللفاف أوصنى . فقال : اجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات . قال وما غلاف الدين ؟ قال ترك طلب الدنيا إلا ما لا بد منه ، وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بد منه ، وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بد منه .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى . أما بعد ، فخف مما خوفك الله ، واحذر مما حذرك الله ، وخذ مما فى يديك لما بين يديك ، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه ، فكتب إليه أما بعد ، فإن الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك ، ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب . واعلم أن من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر فى العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ، ومن خاف أمن ، ومن أمن اعتبر ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم . فإذا زللت فارجع ، وإذا ندمت فأَقْلِعْ وإذا جهلت فاسأل ، وإذا غضبت فأمسك .

وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد ، فإن الدنيا دار عقوبة ، ولها يجمع من لا عقل له ، وبها يغتر من لا علم عنده .. فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جُرحه ، يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء .

وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عدى بن أرطاة : أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله ، وعدوة أعداء الله . فأما أولياؤه فغمتهم . وأما أعداؤه فغرتهم .

وكتب أيضاً إلى بعض عماله : أما بعد ، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد ، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك . وأعلم أن الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام .

فهكذا ينبغى أن يكون وعظ العامة ، ووعظ من لا يدرى خصوص واقعته . فهذه للواعظ مثل الأغذية التى يشترك الكافة فى الانتفاع بها . ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ ، وغلبت المعاصى ، واستشرى الفساد ، وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعاً ، وينشدون أبياتاً ، ويتكلفون ذكر ما ليس فى سعة علمهم ، ويتشبهون بحال غيرهم . فسقط عن قلوب العامة وقارُهم ، ولم يكن كلامهم صادراً من القلب ليصل إلى القلب . بل القائل متصلف ، والمستمع متكلف ، وكل واحد منهما مُدْبِرٌ ومتخلف . فإذا كان طلب الطبيب أول علاج المرضى ، وطلب العلماء أول علاج العاصين . فهذا أحد أركان العلاج وأصوله .

الفصــل الثــالث

الركن الثانى فى العلاج الصبر

الأصل الثانى : الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره . وإنما يتناول ذلك إما لغفلته عن مصرته ، وإما لشدة غلبة شهوته . فله سببان . فما ذكرناه هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة . وطريق علاجها قد ذكرناه فى كتاب رياضة النفس .

وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لمأكول مضر ، فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ، ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ، ثم يتسلى عنه بما يقرب منه فى صورته ولا يكثر ضرره ، ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذى يناله فى تركه . فلا بد على كل حال من مرارة الصبر . فكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى . كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة ، فصار لا يقدر على حفظ عينه ، ولا حفظ قلبه ، أو حفظ جوارحه فى السعى وراء شهوته فينبغى أن يستشعر ضرر ذنبه ، بأن يستقرى المخوفات التى جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ . فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته . ومهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتهى والنظر إليه ، وعلاجه الهرب والعزلة ومن داخل تناول لذائذ الأطعمة ، وعلاجه الجوع والصوم الدئم . وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ، ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار ، أو عن سماع وتقليد . فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل ، مصروف إلى السماع ، ثم التفكر فيه لتمام الفهم وينبعث من تمامه لا محالة خوفه وإذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر ، وانبعثت الدواعى لطلب العلاج ، وتوفيق الله

وتيسيره من وراء ذلك . فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء ، واستشعر الخوف فاتقى ، وانتظر الثواب ، وصدّق بالحسنى ، فسييسره الله تعالى لليسرى . وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسييسره الله للعسرى ، فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهماهلك وتردى . وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى ، وإنما لله الآخرة والأولى .

فإن قلت : فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان ، لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف ، والخوف لا يكون إلا بالعلم ، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان ، فكان من أصر على الذنب لم يُصر عليه إلا لأنه غير مؤمن ، فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان ، بل يكون لضعف الإيمان . إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى ، وسبب العقاب فى الآخرة . ولكن سبب وقوع فى الذنب أمور .

الفصـــل الرابـــع
أسباب الوقوع فى الذنوب

أحدها : أن العقاب الموعود غيبٌ ليس بحاضر . والنفس جبلت متأثرة بالحاضر ، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر .

الثانى :-أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة ، وهى فى الحال آخذة بالمخنق . وقد قوى ذلك واستولى عُليها بسبب الاعتياد والإلف ، والعادة طبيعة خامسة ، والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس . ولذلك قال تعالى : ﴿ **كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ** ﴾(١٩٤) وقال عز وجل : ﴿ **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾(١٩٥) وقد عبّر عن شدة الأمر قول رسول الله ﷺ(١٩٦) « **حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وحُفتِ النَّارُ بالشهَوَاتِ** » وقوله ﷺ(١٩٧) : « **إنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا . فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلها فَحَفَّهَا بالشَّهَوَاتِ . ثُمَّ قَالَ : اذْهَبْ فانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ . فَقَالَ : وَعِزَّتِك لَقَدْ خَشيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا وَخَلَقَ الْجَنَّةَ . فَقَالَ لِجبْريلَ عَلَيْهِ السَّلامُ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ . فَقَالَ : وعِزَّتِك لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا فَحَفَّهَا بالْمَكَارِهِ ثـم . قَالَ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ إليْهَا . فَقَالَ : وَعِزَّتِك لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ** » . فإذاً كون الشهوة مرهقة فى

(١٩٤) القيامة : ٢٠

(١٩٥) الأعلى : ١٦

(١٩٦) حديث حفت الجنة بالمكاره ـــ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(١٩٧) حديث إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها ـــ الحديث : أبو داود والترمذى والحاكم ، صححه من حديث أبى هريرة وقدم فيه ذكر الجنة .

الحال ، وكون العقاب متأخر إلى المآل ، سببان ظاهران فى الاسترسال . مع حصول أصل الإيمان . فليس كل من يشرب فى مرضه ماء الثلج لشدة عطشه ، مكذباً بأصل الطب ، ولا مكذباً بأن ذلك مضر فى حقه . ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز ، فيهون عليه الألم المنتظر .

الثالث . أنه ما من مذنب مؤمن إلا وهو فى الغالب عازم على التوبة ، وتكفير السيئات بالحسنات . وقد وعد بأن ذلك يجبره . إلا أن طول الأمل غالب على الطباع ، فلا يزال يسوّف التوبة والتكفير . فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ، ربما يقدم عليه مع الإيمان .

الرابع : أنه ما من مؤمن موقن ، إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها . فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالاً على فضل الله تعالى .

فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب ، مع بقاء أصل الإيمان . نعم قد يقدم الذنب بسبب خامس يقدح فى أصل إيمانه ، وهو كونه شاكاً فى صدق الرسل ، وهذا من الكفر . كالذى يحذره الطبيب عن تناول ما يضره فى المرض . فإن كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب ، فيكذبه أو يشك فيه ، فلا يبالى به . فهذا هو الكفر .

الفصل الخامس

علاج الأسباب الموجبة للإصرار

الفكر الحقيقى دواء الوقوع فى المعاصى :

فإن قلت : فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه فى السبب الأول ، وهو تأخر العقاب ، أن كل ما هو آت آت : وأن غداً للناظرين قريب ، وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله ، فما يدريه لعل الساعة قريب . والمتأخر إذا وقع صار ناجزاً . ويذكر نفسه أنه أبداً فى دنياه يتعب فى الحال لخوف أمر فى الاستقبال . إذ يركب البحار ، ويقاسى الأسفار ، لأجل الربح الذى بظن أنه قد يحتاج إليه فى ثانى الحال . بل لو مرض فأخبره طبيب نصرانى بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت ، وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه ، مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخفف ما بعده ، ومفارقته للدنيا لا بد منها . فكم نسبة وجوده فى الدنيا إلى عدمه أزلاً وأبداً ، فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمى لم تقم معجزة على طبِّه ، فيقول . كيف يليق بعقلى أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندى ، دون قول نصرانى يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبِّه ، ولا يشهد له إلا عوام الخلق ؟ وكيف يكون عذاب النار عندى أخف من عذاب المرض ، وكل يوم فى الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا !

وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه . ويكلف نفسه تركها ، ويقول إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتى أيام العمر وهى أيام قلائل ، فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد ! وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر ، فكيف أطيق ألم النار ! وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزج صفوها

بكدرها . فكيف أصبر عن نعيم الآخرة ! وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر فى أن أكثر صياح أهل النار من التسويف ، لأن المسوّف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وإن بقى فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم . فليت شعرى هل عجز فى الحال إلا لغلبة الشهوة ؟ والشهوة ليست تفارقه غداً بل تتضاعف ، إذ تتأكد بالاعتياد . فليست الشهوة التى أكدها الإنسان بالمادة كالتى لم يؤكدها . وعن هذا هلك المسوّفون ، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة فى أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق ، وما مثال المسوّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة ، فقال : أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه . فلا حماقة فى الدنيا أعظم من حماقته ، إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف . فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو فى نفسه وقوى الضيف . وأما المعنى الرابع ، وهو انتظار عفو الله تعالى ، فعلاجه ما سبق . وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء . منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز فى أرض خربة . فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان . وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة فى بلده ، وترك ذخائر أمواله فى صحن داره ، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل ، وقال : أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب ، حتى لا يتفرغ إلى دارى ، أو إذا انتهى إلى دارى مات على باب الدار ، فإن الموت ممكن ، والغفلة ممكنة ، وقد حكى فى الأسمار أن مثل ذلك وقع : فأنا أنتظر من فضل الله مثله . فمنتظر هذا منتظرُ أمر ممكن ، ولكنه فى غاية الحماقة والجهل ، إذ قد لا يمكن ولا يكون . وأما الخامس وهو شك فهذا كفر . وعلاجه الأسباب التى تعرفه صدق الرسل . وذلك يطول . ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له :

ما قاله الأنبياء المؤيديون بالمعجزات هل صدقه ممكن ؟ أو تقول أعلم أنه محال ، كما أعلم استحالة كون شخص واحد فى مكانين فى حالة واحدة ؟ فإن

قال أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه ، وكأنه لا وجود لمثل هذا فى العقلاء . وإن قال أنا شاك فيه فيقال : لو أخبرك شخص واحد مجهول ، عند تركك طعامك فى البيت لحظة ، أنه ولغت فيه حية ، وألقت سمها فيه ، وجوزت صدقه ، فهل تأكله أو تتركه ؟ وإن كان ألذ الأطعمة ؟ فيقول أتركه لا محالة ، لأنى أقول إن كذب فلا يفوتنى إلا هذا الطعام ، والصبر عنه وإن كان شديداً فهو قريب ، وإن صدق فتفوتنى الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد . فيقال له : يا سبحان الله ، كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم ، مع ما ظهر لهم من المعجزات ، وصدق كافة الأولياء ، والعلماء ، والحكماء ، بل جميع أصناف العقلاء ، ولست أعنى بهم جهال العوام بل ذوى الألباب ، عن صدق رجل واحد مجهول ، لعل له غرضاً فيما يقول ! فليس فى العقلاء إلا من صدّق باليوم الآخر ؛ وأثبت ثواباً وعقاباً ، وإن اختلفوا فى كيفيته ، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد . وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة فلا يبقى له توقف إن كان عاقلاً مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد . بل لو قدّرنا الدنيا مملوءة بالذرة ، وقدّرنا طائراً يلتقط فى كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها . لفنيت الذرة ، ولم ينقص أبد الآباد شيئاً . فكيف يفتر رأى الغافل فى الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلاً ، لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ! ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخى المعرى :

قال المنجم والطبيب كلاهما … لا تبعث الأموات قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر … أو صح قولى فالخسار عليكما

ولذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور ، وكان شاكا : إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعاً ، وإلا فقد تخلصتُ وهلكتَ . أى العاقل يسلك طريق الأمن فى جميع الأحوال . فإن قلت . هذه الأمور جلية ، ولكنها ليست تنال إلا بالفكر ، فما بال القلوب هجرت الفكرِ فيها واستثقلته ، وما علاج القلوب لردها إلى الفكر ، لا سيما من آمن بأصل

الشرع وتفصيله . فاعلم أن المانع من الفكر أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر فى عقاب الآخرة وأهوالها ، وشدائدها ، وحسرات العاصين فى الحرمان عن النعيم المقيم . وهذا فكر لدَّاغ مؤلم للقلب ، فينفر القلب عنه ، ويتلذذ بالفكر فى أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة .

والثانى : أن الفكر شغل فى الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وما من إنسان إلا وله فى كل حالة من أحواله ، ونفَس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته . فصار عقله مسخراً لشهوته ، فهو مشغول بتدبير حيلته ، وصارت لذته فى طلب الحيلة فيه أو فى مباشرة قضاء الشهوة ؟ والفكر يمنعه من ذلك . وأما علاج هذين المانعين ، فهو أن يقول لقلبه : ما أشد غباوتك فى الاحتراز من الفكر فى الموت وما بعده ، تألماً بذكره ، مع استحقار ألم مواقعته . فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع ، وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ، ومتألم به ! .

وأما الثانى : وهو كون الفكر مفوتاً للذات الدنيا ، فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم . فإنها لا آخر لها ، ولا كدورة فيها . ولذّات الدنيا سريعة الدثور ، وهى مشوبة بالمكدرات . فما فيها لذة صافية عن كدر . وكيف وفى التوبة عن المعاصى والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى ، واستراحة بمعرفته ، وطاعته ، وطول الأنس به ! ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة ، وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافياً . فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ! نعم هذه اللذة لا تكون فى ابتداء التوبة ، ولكنها بعدما يصبر عليها مدة مديدة ، وقد صار الخير ديدنا ، كما كان الشر ديدنا ، فالنفس قاتلة ما عودتها تتعود ، والخير عادة ، والشر لجاجة .

فإذاً هذه االأفكار هى المهيِّجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات . ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ ، وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل فى الحصر ، فيصير الفكر موافقاً للطبع ، فيميل القلب إليه : ويعبر

عن السبب الذى أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذى هو سبب الخير بالتوفيق . إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذى هو طاعة نافعة فى الآخرة . وقد روى فى حديث طويل ، أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين ، أخبرنا عن الكفر على ماذا بُنى فقال علىّ رضى الله عنه : بنى على أربع دعائم . على الجفاء ، والعمى والغفلة ، والشك . فمن جفا احتقر الحق ، وجهر بالباطل ومقت العلماء . ومن عمى نسى الذكر . ومن غفل حاد عن الرشد . ومن شك غرته الأمانى . فأخذته الحسرة والندامة ، وبداله من الله ما لم يكن يحتسب .

فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر وهذا القدر فى التوبة كاف .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ..

فهـرس التوبـه

الموضـوع صفحة

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

رقم الايداع
٨٦/٤٥٤٥

مطابع فتحى الصناعيه

٥٤ شارع بورسعيد ـــ السواح ـــ الأميريه
تليفون ٩٢٦٢٨٩ ـــ ٩٢٦٩٧٣.